كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

بصائر المعرفة القرآنية
﴿٢١﴾

تسوير السور القرآنية
﴿١٧﴾

مفصل تفسير

سورة النساء

مدنية

موضوعها الكلي

المحافظة الربانية على الإنسانية وحمايتها من أصل الشرور الخفية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة النساء

MUFASSAL

TEFSİR SURE EL-NAS

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul

2024 - 1446

بصائر المعرفة القرآنية
﴿٢١﴾

تسوير السور القرآنية
﴿١٧﴾

مفصل تفسير

سورة النساء

نبذ

موضوعها الكلي

المحافظة الربانية على الإنسانية وحمايتها من أصل الشرور الخفية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة النساء

عبد السلام مقبل المجيدي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 152 ص

ISBN: 978-625-8063-84-4

الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ. د/ سعيد أحمد السيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات/ جامعة الأزهر

المراجعون

الشيخ / العزي سليمان — أ / محمد المثيل

د / عامر الخميسي — أ / وضاح الجبزي

د / حمود ردمان — أ / أميرة ردمان

د / محمد القباطي — أ / إباء المقدادي

مكتبة الأسرة العربية®

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ سعيد أحمد السيد جمعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن قارئ القرآن الكريم لا يزال يتلوه، ويتدبَّره، ويردِّده على قلبه مرَّة بعد مرَّة، ويظلُّ القرآن الكريم يعطيه من لآلئه وأسراره، ويظنُّ المتدبِّر في كلِّ مرَّة أنه قد أتى على ما فيه، وأنه حصَّل كلَّ معانيه، ثم يعاود بعد فترة القراءة والتدبُّر فيعاود القرآن الكريم يعطيه، ثم يعاود التدبُّر، فيجد القرآن الكريم يفيض عليه، وكلما زاد القارئ من تدبُّره زاده القرآن من عطاءاته، فالبحر ممدود، والكنز ليس له حدود ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهذا الكتاب الذي بين يديك اتسعت سواحله، وتعمَّقت دلائله، وتلاحقت أمواج المعاني فيه، وهو دليل واضح على طول النَّظر من الكاتب في كتاب الله تعالى، وكثرة التدبُّر، ومعاودة التفكير، وإدامة الطَّرْق على المعاني والجمل والتراكيب.

ويُحسَب لهذا الكتاب أنه دمج ما توصل إليه العلم الحديث بالدلالات القرآنية، دمجًا يزيد من نصاعة المعاني، ويكشف عن كثير من جوانب الإعجاز .

كما يُحسَب له أنه يقف على كلِّ لفظة عربية ليكشف عن عطاءاتها اللغويَّة وتلاؤم هذا العطاء مع المقصود القرآني، ويعود بالدَّلالات إلى اللسان العربي الفصيح شعرًا ونثرًا، ممَّا يؤكِّد عجز العرب رغم فصاحتهم عن المجيء بمثله .

كما يُحسَب له أنه جمع بين روح التفسير القديم وإسهامات المفسرين المعاصرين، وربط بين الآيات، ورد على الشبهات وكشف عن عطاءات الأساليب، والجُمَل والمفردات، بل

والحروف، حتى أشبع نَهم كلِّ قارئ، وروى عطش كلِّ باحث، وكلُّ ذلك في أسلوبٍ رقراقٍ واضحٍ شافٍ كافٍ .

وإني أدعو الله تبارك وتعالى أن يتقبَّل هذا العمل، وأن يُثقِّل به الموازين، وأن ينفع به الأمَّة الإسلامية، وأن يفتح لكاتبه الأبواب حتى يلج بهذا العمل على رسول الله ﷺ في جنة الفردوس، وأن يجمعنا والقارئين، والمحبين لهم على خير في جنة الخلد .

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه:

أ. د/ سعيد أحمد السيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات

فرع جامعة الأزهر

٥ من ذي القعدة ١٤٤٥هـ

١٣ من مايو ٢٠٢٤م

مفصل تفسير
سورة النساء

موضوعها الكلي

المحافظة الربانية على الإنسانية وحمايتها من أصل الشرور الخفية

عبد السلام مقبل المجيدي

مُقَدِّمَة

دَفْعُ الوَسْوَاسِ بِبَصائِرِ سُورَةِ النَّاسِ

الحمد لله شفى من الوسواس الخَنَّاس، بأنوار سورة النَّاس، الحمد لله أذهب عنَّا بها رِجز الشَّيطان، وأذى كلِّ محنة وبليَّة وباس.

أدعوك يا ربَّنا يا كاشفَ البَاسِ ... بالسَّبعِ بالفَلقِ المَقْرُونِ بالنَّاسِ

أَزِلْ بلُطْفِكَ يا ذا اللُّطفِ كُرْبَتَنا ... في عاجلٍ يُسْعِفُ الدُّنيا مِنَ اليَاسِ

أَجْبْ بِفُضلِك يا ذا الجُودِ مَسْألتي ... فأُمْنِيَاتِي كغصنٍ في الشِّتا القَاسِي [1]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يمسي بها العمل الصَّالح مرفوعًا، ويُضحي بها الزَّلل الفاضح موضوعًا، وأصلِّي وأسلِّم على سيِّد المصطفين الأخيار الأكياس، الذي رزقه الله ﷻ بتلاوة القرآن أطهر الأنفاس، وعلى آله، وصحبه الذين لبسوا التَّقوى، وهو خير لباس.

أما بعد:

كيف تتوقَّع أن تكون خاتمة رحلتك المباركة مع أعظم الكلمات الإلهيَّة في الكون؟

ماذا تتصوَّر -أيَّدك الله- أن تكون عليه آخر سورة تقابلك في المصحف؟

تفاجئك الرَّحمات الإلهيَّة بحنانها، وجمالها، ودفئها، ومحبَّتِها، فآخر سورة في القرآن تسمَّى سورة "النَّاس" لتتعلَّق بحمايتك وحماية الإنسانيَّة كلِّها، كما كانت أوَّل سورة تقابلك في المصحف هي سورة "الحمد" لتشير إلى حمد الله ﷻ على كماله الذَّاتيِّ، وأسمائه الحسنى، وصفاته الكاملة، وإحسانه الذي به ربَّى العالمين، وملأ به من نوره في السَّموات والأرضين.

---

(١) الأبيات للشيخ محمد المثيل -غفر الله له-.

بصيرة: آخر سورة تسمَّى باسم "النَّاس" لتقوِّي دفاعاتك، وتحمي خطواتِك أمام الشُّرور التي تراها والتي لا تراها، وتمدُّك بالحصن الذي لا تخرقه أسلحة الشَّيطان، ولا تقوى على عِزِّهِ تحالف الإنس والجانِّ.. إنه حصن ربِّنا ربِّ النَّاس، ملك النَّاس، إله النَّاس.

إلـهـي مـا دَعَـوتُـكَ فـاسْـتَـجِـبْ لِـي ... وَهَـبْ لِـي مَـا أَشَـاءُ كَـمَـا تَشَـاءُ
أنـا الـعَـبْـدُ الضَّـعِـيـفُ يَـقِـلُّ جُـهْـدِي ... إِذَا ازْدَحَـمَ الـدُّعَـاةُ الأَقْـوِيَـاءُ
وَمَـنْ حَسِـبَ الـدُّعـاءَ يُـفِـيـدُ أَجْـرًا ... وَلَـكِـنْ لا يُـرَدُّ بِـهِ الـقَضَـاءُ
فَـذَلَـكَ جَـاهِـلٌ، والـجَـهْـلُ دَاءٌ ... وَدَاءُ الـجَـهْـلِ لَـيْـسَ لَـهُ دَوَاءُ[1]

أيُّها المبارك.. أيَّتها المباركة:

انظر لقوَّة البصائر في السُّوَر القُرآنِيَّة، فبينا أنت في دروب الحياة، ومناكب الأرض، تتقلَّب باحثًا عن رزقك، مكافحًا لكسب لقمة عيشك، ماضيًا إلى ربِّك ﷻ، تهاجمك بين حين وآخر شرور، وتحوم حول حماك بلايا، ترى بعضها، ولا ترى أخرى، وتشعر ببعض ويغيب عنك كثير، فهل أعددتَ دفاعاتِك، وتجهَّزتَ بأقوى الخطط والأفكار؟ وهل زوَّدتَ حصونك بالعُدَّة اللَّازمة لمواجهة الأخطار؟

وهل أنت مستعدٌّ لخوض معركة فُرِضت عليك منذ أن كنت في صلب أبيك آدم عليه السلام؟!

(١) الأبيات للإمام محمد بن سالم البيحاني رحمه الله.

أيها المبارك.. أيتها المباركة:

لا بدَّ لك من استعداد دائم، وجاهزيَّة عالية، ويقظة لا تعرف الفتور، وإلا بُؤْت بالفشل، ورجعت بالخسار، والهزيمة والانكسار.

وعندما تعلم أو تتذكَّر أن ربَّك القويَّ القادرَ القدير المقتدر قد أمدَّك بما تحتاج مددًا لا نظير له، وزوَّدك بما تريد كرمًا لا مثيل له، تنقشع عن سمائك غاية الكآبة، وتزول عن ساحك عواصف الكروب، وتسير بك سفينة النَّجاة على ماء الطُّمَأْنِينَةِ بريح طيِّبة مفعمة بالثِّقة والجمال:

بُنَيَّ لئنْ أعيا الطَّبيبَ ابنَ مسلمٍ ... ضَنَاكَ وأعيا ذا البَيَانِ المُوَشَّعِ

لأبْتَلِهنْ تَحْتَ الظَّلامِ بدعوةٍ ... متى يَدْعُها داعٍ إلى اللهِ يَسْمَعِ

تَغَلْغَلَ من بين الضُّلوعِ نَشِيجُها ... لها شافعٌ مِنْ عَبْرَةٍ وتَضَرُّعِ

إلى فارجِ الكَرْبِ المُجِيبِ لمَنْ دَعَا ... فَزِعتُ بَكَرْبِي، إنَّه خَيرُ مَفزَعِ

فيا خَيرَ مدعوٍّ دَعَوتُكَ فاسْتَمِعْ ... وما لي شفيعٌ غيرُ فَضْلِكَ فاشْفَعِ[1]

إنها سورة النَّاس أحد أهمِّ حصونك الحصينة، ودفاعاتك المنيعة، فَقَرَّ بها عينًا، وطِبْ بها نفسًا، وكن بها في كنف الرَّحمن، وبحبوحة رعاية الحفيظ المنَّان، ولا تزال في سلام وأمان، ما دامت ترافقك المُعَوِّذتان، فهما خير ما يجلب لك الأمان، ويدفع عنك الشَّرَّ والشَّيطان.

أحدِّثك عن نفسي، فعندما أقرأ سورة النَّاس تنجلي ظلمات الآلام والمخاوف، ويُطرد الياس والباس:

أنا المُفَرِّطُ كَمْ مِن زَلةٍ وَقَعَتْ ... مني وَضَعتُ لها كَفِّي عَلَى رَاسِي

(١) لابن عبد ربه في «العقد الفريد» (٣/ ١٨٢).

لكنْ إذا ظَمِئَتْ رُوْحِي لمَغْفِرةٍ مَدَدتُ للهِ في جَوفِ الدُّجَى كَاسِي[1]

وهانحن أولاء نكمل رحلة البصائر بتدبُّر آيات القرآن في آخر سورة منه حسب ترتيب المصحف.. لماذا؟

لا نجد هنا أفضل من استحضار قول ربِّنا ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفي الشُّعور بالقيمة الكبرى لهذا التَّدبُّر يقول الآجري رحمه الله: «أَلَا تَرَوْنَ رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ، كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلَامَهُ، وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ ﷻ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ، فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ الْكَرِيمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ، كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَى بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ بِمَا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ لِلسُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا مَتَى أَتَّعِظُ؟ بِمَا أَتْلُو؟ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ مَتَى أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ مَتَى أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟»[2].

وهنا يطيب لنا أن نقول ما قاله الحبيب عامر الخميسي -وفقه الله- في "كلمات النجاة"، إذ يقول:

إنِّي اسْتَعَنْتُ عَلَى أُمُورِي كُلِّهَا وعَلَى العِبَادةِ دَائِمًا بِالبَسْمَلَهْ
وعَلَى الفَوَاضِلِ مِنْ نَدَى نَعْمَائِهِ أُمْسِي وَأُصْبِحُ هَاتِفًا بِالحَمْدَلَهْ

(١) فواز اللعبون، بتصرف يسير.

(٢) أخلاق أهل القرآن (ص: ٣٦).

وقَـدِ اسْـتَجَرْتُ مِنَ المَخَـاوِفِ كُلِّهـا ومِـنَ الأَعَـادِي كُـلِّـهِـمْ بِـالـحَسْـبَـلَـهْ
ومِنَ المَصَـائِبِ والنَّوائِبِ فِي الـدُّنَـا ومِنَ الخُطُوبِ إِذَا أَتَـتْ بِـالحَوْقَلَـهْ
ومُـرَدِّدًا عُـمـرِي وعِـنْـدَ مَـنِـيَّـتِـي مُـتَـبَـتِّـلًا مُـتَـزَوِّدًا بِـالـهَـيْـلَـلَـهْ

اللَّهمَّ آتنا من فضلك ورحمتك بفضلك ورحمتك أفضل ما تؤتي عبادك الصَّالحين، اللَّهمَّ تَقَبَّلْ هذه البصائر، وأَلْقِ لها القبول في العالمين، واجعل أثرها عليهم إلى يوم الدِّين.

عبد السلام مقبل المجيدي
s1435y@gmail.com
٣ ذو القعدة ١٤٤٤هـ
الموافق ٢٣/ ٥/ ٢٠٢٣م

النُّور الأوَّل: فضائل سورة الناس

فضائل المعوذتين

1 الفضيلة الأولى

هما مع الفاتحة أعظم سُوَر القرآن منزلة.

2 الفضيلة الثانية

عظمة المعوذتين، فتقدَّمان على غيرهما من السُّوَر ما عدا الفاتحة.

3 الفضيلة الثالثة

حِرزٌ خاصٌّ للإنسان في منامه.

4 الفضيلة الرابعة

علاجٌ للأوجاع والأسقام.

5 الفضيلة الخامسة

المعوذتان وقاية من الحوادث الطبيعيَّة المخيفة.

6 الفضيلة السادسة

المعوذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه.

7 الفضيلة السابعة

ارتباطهما بصلاة الوتر اليوميَّة، فالمداومة على قراءتهما في هذا الموضع يرشدنا إلى مكانتهما الخاصَّة.

8 الفضيلة الثامنة

مجلبة للرِّزق ورغد العيش.

9 الفضيلة التاسعة

المعوذتان العلاج الأقوى للسِّحر.

وبما أن هذه السُّورَة هي السُّورَة الأخيرة في المصحف، ستسأل نفسك: هل يوجد لها فضائل محدَّدة؟

أجيبك: نعم! فقد تكاثرت فضائلها مع سورة الفلق، وتسمَّيان معًا "المُعَوِّذتين"، ومن أبرز فضائلهما:

الفضيلة الأولى: هما كالفاتحة أعظم الوحي منزلة، فثلاثتهنَّ أعظم السُّوَر مكانة، ولهنَّ المزيَّة العليا، فلا مماثل لهنَّ في الوحي الإلهيِّ.

الفضيلة الثانية: عظمة المُعَوِّذتين، فتقدَّمان على غيرهما من السُّوَر ما عدا الفاتحة.

الفضيلة الثالثة: حِرزٌ خاصٌّ للإنسان في منامه، فقد شُرعت لنا المداومة على قراءتهما كلَّ ليلة، فلا ينبغي تَرْك ذلك.

الفضيلة الرابعة: علاجٌ للأوجاع، والأسقام.

الفضيلة الخامسة: المُعَوِّذتان وقاية من الحوادث الطَّبيعيَّة المخيفة.

الفضيلة السادسة: المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه؛ مرئيًّا كان أو غير مرئيٍّ.

الفضيلة السابعة: ارتباطهما بصلاة الوتر اليوميَّة؛ حيث يقرآن في آخر ركعة من الوتر مع الإخلاص، فالمداومة على قراءتهما في هذا الموضع يرشدنا إلى مكانتهما الخاصَّة.

الفضيلة الثامنة: مجلبة للرِّزق، ورغد العيش.

الفضيلة التاسعة: المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر: فهما يمثِّلان أعظم سُبُل الوقاية والعلاج من السِّحر النَّازل الذي تشعر به الأجساد، وقد يخفى وجوده عن العيون في الطُّرق والفِجاج.

تعال نحاول النَّظر في تفاصيل هذه الفضائل، ونرتقي بها لتحصيل أمجاد النُّبلاء الأماثل:

الفضيلة الأولى: المُعَوِّذتان كالفاتحة أعظم الوحي منزلة، فثلاثتهن أعظم السُّوَر مكانة، ولهن المزيَّة الأعلى، فلا مماثل لهن في الوحي الإلهيِّ:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١)، وهذا الحديث يذكِّرك بحديث الفاتحة، فاجتمعت السُّوَر الثلاث في أنَّهُنَّ أعظم الوحي منزلة، فهذا مقتضى قوله ﷺ: «لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ».

الفضيلة الثانية: عظمة المُعَوِّذتين، فتقدَّمان على غيرهما من السُّور ما عدا الفاتحة:

عن عقبة بن عامر ﷺ أيضًا قال: اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَقْرِئْنِي مِنْ سُورَةِ هُودٍ، أَوْ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ. فَقَالَ: «لن تقرأ شيئًا أبلغَ عند الله ﷻ من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

لاحظ عظمة المُعَوِّذتين، فقد أراد عقبة ﷺ أن يقرأ سورًا طويلة، فأخبره النَّبيُّ ﷺ بأن المُعَوِّذتين أبلغ عند الله ﷻ من غيرهما.

الفضيلة الثالثة: حِرزٌ خاصٌّ للإنسان في منامه، فقد شُرعت لنا المداومة على قراءتهما كلَّ ليلة، فلا ينبغي ترك ذلك:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أيضًا، قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ،

(١) مسلم (٨١٤).

(٢) النسائي (٩٥٣)، وصححه الألباني، والوادعي في الصحيح المسند (٩٣٣).

لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

وبيَّنت لنا أمُّ المؤمنين عَائِشَة ﵂ كيف كان النَّبيُّ ﷺ يقرؤهما في ليلته، فذكرت أنه ﷺ كان «إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(٢)، وقد ورد هذا الحديث بلفظ: «نَفَثَ فِي كَفَّيْهِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَبِالمُعَوِّذتين جَمِيعًا»(٣).

الفضيلة الرابعة: علاجٌ للأوجاع والأسقام:

عن عَائِشَة ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»(٤).

ومن الأمراض التي تشفيها المُعَوِّذتان اللدغات المفاجئة من الحشرات؛ فعَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ [وهو أبوه] ﵁، قَالَ: لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَقْرَبٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْعَقْرَبَ، لا تَدَعُ مُصَلِّيًا وَلَا غَيْرَهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ وَمِلْحٍ، وَجَعَلَ يَمْسَحُ عَلَيْهَا، وَيَقْرَأُ بِـ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٥).

---

(١) أحمد (١٧٤٨٨)، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن»، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦١).

(٢) البخاري (٥٠١٧).

(٣) البخاري (٥٧٤٨).

(٤) البخاري (٥٠١٦).

(٥) المعجم الصغير (٨٣٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١١): «رواه الطبراني في الصغير، وإسناده حسن»، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤٨).

الفضيلة الخامسة: المُعوِّذتان وقاية من الحوادث الطبيعية المخيفة:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ، وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وَيَقُولُ: «يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا». قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلاةِ[1].

تشرقُ نفسك عندما تسمع هذه الفضائل لهاتين السُّورتين، فتبحث كيف تنير حياتك بالأعمال الكوامل، والأفعال الجلائل بأن تجعل المُعَوِّذتين على لسانك في صباحك ومسائك.

فيا أيُّها السَّارب في ميادين الزَّمن، يا أيُّها الضَّارب في صحاري الأيام، يا أيُّها المقتحم في دهاليز الحياة، والمحمَّل بأثقال الحوادث، والمكبَّلُ بقيود الهموم، يا أيُّها المُجْهَد من السَّعي في مناكب الأرض، يا أيها الظَّمآنُ، دونك النَّبع الصَّافي، والمورد العذب الزُّلال، فارتشف منه واغترف.

يـا أيُّـهـا الـظَّـمـآنُ دونَـكَ مـنـبـعَـكْ ... رتِّـلْ ورَوِّ الـقـلـبَ. عَـطِّـرْ مسـمَـعَـكْ

هـذا كـتـابُ اللهِ نـبـضُـكَ كـلـمـا ... رتَّـلـتَـهُ دنَـتِ الـنُّـجـومُ لـتسـمـعَـكْ

بضـيـائِـهِ سِـرْ واثـقًـا... تـاللهِ مـا ... تـاهـتْ طريقُـكَ إنْ يَسِـرْ فيها معَـكْ!

واسـكـبْ على عينيـكَ من آيـاتِـهِ ... حتى تَرى من مَشـرِقَيها مطلعَـكْ

هـذا كتـابُ اللهِ حِصْـنُـكَ فـالتمِسْ ... فـيـهِ الأمـانَ... إذا بـدا مـا روَّعَـكْ

---

(١) أبو داود (١٤٦٥)، وصحَّحه الألباني.

نورٌ شفاءٌ رحمةٌ... وسكينةٌ ... فاملأْ بدفَّاقِ المعاني أضلُعَكْ
رتِّلْ... ولا تبخلْ عليكَ بدمعةٍ ... نجواكَ تَبلغُ حينَ تُجري أدمعَكْ
إنْ رَاوَدَتْكَ النَّفْسُ يَوْمًا... غَلَّقَتْ ... أَبْوَابَهَا... فَافْزَعْ إِلَيْهِ لِيَمْنَعَكْ
وَإِذَا هَوَى بِكَ... فِي غَيَابَةِ جُبِّهِ ... لَيْلُ الهَوَى... فَامْسِكْ سَنَاهُ لِيَرْفَعَكْ
وَإِذَا ذَرَتْكَ عَوَاصِفٌ... مِنْ غَفْلَةٍ ... فَافْتَحْ لَهُ بَابَا إِلَيْكَ... لِيَجْمَعَكْ
رَتِّلْ وَرَتِّلْ... كُلُّ حَرْفٍ... نَغْمَةٌ ... مَا أَرْوَعَ النَّغَمَ النَّدِيَّ... وَأَرْوَعَكْ!
هَذَا كِتَابُ اللهِ... نَبْعُ هِدَايَةٍ ... يَا أَيُّهَا الظَّمْآنُ... دُوْنَكَ مَنْبَعَكْ[1]!

الفضيلة السَّادسة: المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه: مرئيًا كان، أو غير مرئي:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ» فَقُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عَنِّي.

-أَيَّدك الله-: هل ترى؟ هل تسمع ما قيل؟ لماذا كرَّر النَّبيُّ ﷺ قوله: «يا عقبة، قل»، ثم لم يجب سؤال عقبة ﷺ؟

أجيبك بأن:

(١) الأبيات للشاعر السعودي المعاصر: عيسى بن علي بن محمد جرابا.

هذا أسلوب تعليميٌّ عظيم، يستعمله النَّبيُّ ﷺ مع أصحابه وأمَّتِه، ليوقظ حواسهم، ويبعدهم عن الغفلة، ويشوِّقهم إلى ما سيذكره بعد ذلك، وقد تعلَّم النَّبيُّ ﷺ هذا الأسلوب من جبريل عليه السلام في أوَّل لقاء بينهما في غار حراء؛ فإن جبريل عليه السلام كرَّر عليه قوله: "اقرأ".

هنا يكون عقبة رضي الله عنه قد اشتاق إلى سماع ما يريد النَّبيُّ ﷺ قوله، فتسمعه يقول متلهِّفًا: فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ ارْدُدْهُ عَلَيَّ -أي: اللَّهُمَّ اجعل نبيَّك يقول لي مرَّة ثالثة ما قاله سابقًا- فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا»(١).

ماذا يعني ذلك؟ ماذا يريد النَّبيُّ ﷺ أن يصوِّر لنا بعد كلِّ هذا التَّشويق؟

الجواب: إنَّ هذه الرواية زادتنا زيادة عظيمة: تقرأ المُعَوِّذتين فتجعلهما مفتاحًا لأنْ تسأل الله ﷻ ما تشاء، فبعد قراءة المُعَوِّذتين اسأل الله ﷻ بهما ما شئت من خيري الدُّنيا والآخرة.

ألا تلاحظ معي أن سيِّدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه روى لنا أحاديث فضائل سورة النَّاس، وقد أوردنا هنا خمسة منها؛ مما يثير عندنا تساؤلًا: ما سرُّ هذه العلاقة الحميمة بين سيدنا عقبة والمُعَوِّذتين؟

---

(١) النسائي (٥٤٣٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

هل كان يشتكي من داء فشكاه إلى حبيبنا المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه؟ هل كان يشتكي من داء فشكاه إلى حبيبنا ﷺ، على حدِّ قول القائل:

تموتُ النُّفوسُ بأوصابِها ... ولم تَشْكُ عُوَّادَها ما بِها

وما أَنْصَفَتْ مُهجةٌ تشتكي ... هواها إلى غيرِ أحبابِها[1]

أو أنَّ الحبيب ﷺ أراد أن يختصَّه برواية فضائل المُعَوِّذتين؟

مسألة تحتاج منا إلى إنعام النَّظر وتقليب الطَّرف، بيد أن هذه منقبة ومكرمة لا تخفى على متأمِّل.

وقد حدث مثل هذا التَّشويق لصحابيٍّ آخر، فهلمَّ نستمع قصته، فعن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه رضي الله عنه قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَصَبْتُ خُلْوَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: «قُلْ»، فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُلْ»، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾» حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لِي: «مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا»[2].

وحدث مثل ذلك أيضًا لصحابيٍّ ثالث، فعنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ يَا جَابِرُ»، قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «اقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا»[3].

---

(١) ذكر الصفدي أن ابن تيمية رحمه الله كان كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات. ينظر: الوافي بالوفيات (٧/ ١٥).

(٢) النسائي (٥٤٢٩)، وصححه الألباني.

(٣) النسائي (٥٤٤١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

هذا التَّكرار بهذا الأسلوب التَّعليميِّ مع أكثر من صحابيٍّ يبصِّرنا بالحرص العظيم الذي كان يتمتع به النَّبيُّ ﷺ لإيصال الخير لأمَّتِه، وهو أيضًا تبيين لرفعة منزلة سُورَتَي النَّاس والفلق، وعظيم مكانتيهما، وما تضمَّنتها من الحروز العظيمة، والوقايات الجسيمة، والمعاني الفخمة، والدَّلائل الضَّخمة.

فتحصَّن بهما -أيها الحبيب- من الشُّرور والمصائب والويلات، وأَدِمْ تكرارهما في النهار واللَّيل، وجميع الأوقات، وكرِّرهما على فؤادك وجنانك في مختلف الأحايين والسَّاعات؛ عسى الله ﷻ أن يجنِّبَك الأهوال والآفات، ويدخلك الجِنان العاليات، ويعاملك برحمته ولطفه يوم تبدل الأرض والسَّموات.

ثم استمع إلى ابن الجوزيِّ وهو يقول لك: «ولا تَطْمَعَنَّ في الخَلاص مَعَ عَدمِ الإخلاص في الطَّاعات، ولا تُؤَمِّلنَّ النَّجاة وأنت مقيمٌ على الموبقات، قال الله جلَّ وعلا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]»[1].

الفضيلة السَّابعة: ارتباطهما بصلاة الوتر اليومية؛ حيث يُقرآن في آخر ركعة من الوتر مع الإخلاص، فالمداومة على قراءتهما في هذا الموضع يرشدنا إلى مكانتهما الخاصَّة:

عن عَمْرَة بنت عبد الرحمن ﵂ قالت: سألت عائشة ﵂ ما كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ في الوتر؟ فقالت: «كان يقرأ في الرَّكعتين التي يوتر بعدهما في الأولى منهما بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾،

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٤٤)؟

وفي الثانية بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وتسليم، ويقرأ في الرَّكعة التي يوتر بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

الفضيلة الثامنة: مجلبة للرزق ورغد العيش:

عن مُحَمَّد بْن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، سَمِعَ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُحِبُّ يَا جُبَيْرُ إِذَا خَرَجْتَ سَفَرًا أَنْ تَكُونَ مِنْ أَمْثَلِ أَصْحَابِكَ هَيْئَةً وَأَكْثَرِهِمْ زَادًا»، فَقُلْتُ: نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «فَاقْرَأْ هَذِهِ السُّوَرَ الْخَمْسَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وَافْتَحْ كُلَّ سُورَةٍ بِـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَاخْتِمْ قِرَاءَتَكَ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، قَالَ جُبَيْرٌ ﷺ: «وَكُنْتُ غَنِيًّا، كَثِيرَ الْمَالِ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ مَعَ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أَخْرُجَ مَعَهُمْ فِي سَفَرٍ، فَأَكُونَ أَبَذَّهُمْ هَيْئَةً، وَأَقَلَّهُمْ زَادًا، فَمَا زِلْتُ مُنْذُ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَرَأْتُ بِهِنَّ، أَكُونُ مِنْ أَحْسَنِهِمْ هَيْئَةً، وَأَكْثَرِهِمْ زَادًا، حَتَّى أَرْجِعَ مِنْ سَفَرِي ذَلِكَ»[2]، والحديث –وإن كان ضعيفًا– إلا أنه مما يستأنس به.

الفضيلة التاسعة: المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر: فهما تمثِّلان أعظم سبل الوقاية والعلاج من السِّحر النَّازل:

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ، قَالَ: «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَاشْتَكَى فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذتين، وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ، قَالَ:

(١) مسند البزار (٢٦٧)، واللفظ له، والدارقطني (١٦٤٩)، وقال الأرناؤوط: «صحيح بغيره».

(٢) مسند أبي يعلى (٧٤١٩)، وقال في مجمع الزوائد (١٠ / ٩٤): «رواه أبو يعلى، وفيه من لم أعرفهم»، وذكر له الألباني متابعات في السلسلة الضعيفة (٦٩٦٣)، ولم يجزم بضعفه، بل تردد فيما ظهر لي.

فَأَرْسَلَ عَلِيًّا، فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، ويقرأ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، قَالَ: وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ»(١).

وقد تقول: وهل يعقل أن يُسْحَر النَّبيُّ ﷺ؟ فكيف يمكن أن يحدث له ذلك في أمر متعلِّق بتبليغ الدَّعوة؟ وقد علَّمنا أن الله ﷻ نزَّه نبيه ﷺ عن أن يكون مسحورًا؟

الجواب: بأن الرِّواية أوضحت نوع السِّحر.. دعنا نستمع للسَّيدة عَائِشَة ﵂ توضِّح الأمر، فقد قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى (يُرَى) أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ، قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ إِذَا كَانَ كَذَا، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ (وفي رواية: ومشاطة)، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَاعُوفَةٍ (رَعُوفَةٍ) فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ». قَالَتْ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ، فَقَالَ: «هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا (رَأَيْتُهَا) وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد (٢٧١)، وقال المحقِّق (الشيخ العدوي): «سنده صحيح»، وذكره الألباني بروايَاته المختلفة في السلسلة الصحيحة (٢٧٦١)، وفي فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٢٢٥): "وقع في حديث ابن عباس ﵄ فيما أخرجه البيهقي في الدلائل بسند ضعيف في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ أنهم وجدوا وترًا فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة"، ولكن الألباني قال: «زيادة نزول جبريل بـ(المُعَوِّذتين) سندها صحيح أيضا».

الْحِنَّاءِ وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ»، قَالَ: فَاسْتُخْرِجَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ أَفَلَا؟ -أَيْ تَنَشَّرْتَ-[1] فَقَالَ: «أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا»[2].

الرواية توضح أنه سِحْرٌ لا يؤثر على تبليغ الرسالة، بل أثَّر على جسد النَّبيِّ ﷺ.

كما حفظ الله ﷻ النَّبيَّ ﷺ من الأمراض التي تؤثِّر في العقول، وجعله يبتلى بالأمراض التي تؤثِّر في الأجساد، فقد حفظ الله ﷻ النَّبيَّ ﷺ من السِّحر الذي يؤثِّر في العقل تأثيرًا يصل إلى عدم معرفة ما يبلِّغه، فهذا حُفِظ منه النَّبيُّ ﷺ، أمَّا ما يتعلَّق بالسِّحر الذي يؤثِّر على تفكيره في بعض مسائل الدُّنيا، فيمكن ذلك.

وهاهو ابن حجر رحمه الله يوضِّح أن تسلُّط هذا النوع من السِّحر إنما كان على جوارح النَّبيِّ ﷺ لا على رسالته، فينقل عن القاضي عياض رحمه الله أن السِّحر تسلَّط على جسده وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومعتقده، ثم نقل ابن حجر رحمه الله في مرسل عبد الرحمن بن كعب

---

(١) قال ابن حجر: قوله: «قالت فقلت: أفلا؟ أي تنشرت»، وقع في رواية الحميدي فقلت: يا رسول الله، فهلا؟ قال سفيان: بمعنى تنشرت، فبيَّن الذي فَسَّر المراد بقولها: (أفلا) كأنه لم يستحضر اللَّفظة فذكره بالمعنى، وظاهر هذا اللفظة أنه من النُّشرة، وكذا وقع في رواية معمر عن هشام عند أحمد: فقالت عائشة ﵂: «لو أنك تعني تنشر»، وهو مقتضى صنيع المصنف حيث ذكر النُّشرة في الترجمة، ويحتمل أن يكون من النَّشر بمعنى الإخراج فيوافق رواية من رواه بلفظ: «فهلا أخرجته؟»، ويكون لفظ هذه الرواية: «هلا استخرجت؟»، وحذف المفعول للعلم به، ويكون المراد بالمخرج ما حواه الجُف، لا الجُف نفسه، فيتأيد الجمع المقدم ذكره". فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٣٥).

(٢) البخاري (٥٧٦٥). "المَطْبُوب": المسحور. و"طَبَّه": سَحَره. و"المُشْط": أحد الأمشاط التي يمشَّط بها الرأس. و"المُشَاطَة": ما يقع من الشَّعَر إذا مُشِّط، ورُوي: "مُشَاقَة" من مُشَاقَةِ الكَتَّان. و"الجُفّ" بالفاء: الوعاء الذي يكون فيه الطَّلْع، "رعوفة": صخرة تنزل في أسفل البئر إذا حفرت، يجلس عليها الذي ينظف البئر، وهو حجر يوجد صلبًا لا يستطاع نزعه فيترك. اختصار صحيح البخاري وبيان غريبه (٤/ ٣٨٩).

عند ابن سعد رواية تؤيِّد ذلك، حيث قالت أخت لبيد بن الأعصم: «إنْ يكن نبيًّا فسيُخبَر، وإلا فسيذهله هذا السِّحر حتى يُذهب عقله»، قال ابن حجر رحمه الله معقبًا: «فوقع الشِّق الأوَّل كما في هذا الحديث الصَّحيح»[1]، ويعني رحمه الله أن الله عز وجل عصمه من الشِّق الثاني، فلم يذهب عقله بالسِّحر، بل تسلَّط السِّحر على بعض قدراته الجسدية، فأصبح في نتيجته مرضًا، كسائر الأمراض التي أصابته ﷺ دون أن تؤثِّر على رسالته.

اليهوديُّ الذي سحر النَّبيَّ ﷺ حقَّق هدفًا قذرًا في إيذاء رسول الله ﷺ فيما لا يتعلَّق بتبليغه الرِّسالة، كمثل إصابته ﷺ بالسُّمِّ، مع أن الله عز وجل عصمه من أذى الناس، فإن السُّمَّ مُنع من التأثير فيه حتى حان الأجل المسمَّى، فظهر عليه أثر السُّمِّ، فلا مانع من حدوث السِّحر إذا لم يمسَّ جناب الرِّسالة، فلا يناقض ذلك قوله تعالى مجده: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان ٧-٨].

ألا ترى -أيَّدك الله- أن هذه الحادثة صارت من علامات نبوَّته، ودلائل رسالته؟

لقد أظهرت أن النَّبيَّ ﷺ معصوم من تأثير السِّحر، وتعجب: ألم يكن من أهداف يهود عندما اقترفوا هذه الجريمة أن ينظروا هل النَّبيُّ ﷺ نبيٌّ حقًّا أم لا؟! وقد ظهر لهم أن السِّحر لم يؤثِّر فيه كما يريدون، بل أثَّر فيه وَفْقَ طبيعة البشر، ثم أزال الله عز وجل ذلك كلَّه، فما لهم لا يؤمنون؟!

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٢٢٧).

الأسس السِّتَّة التي تؤدِّي إلى معرفة الموضوع الكلِّيِّ لسورَة الناس

المحافظة الربانية على الإنسانية وحمايتها من أصل الشرور الخفية

الأساس الأول: النزول التاريخي

مكّية، وربما تكرَّر نزولها في المدينة، وعُدَّت السُّورة العشرين حسب ترتيب سور القرآن في النزول التاريخي

الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ

سورة الناس بعد سورة الفلق حسب التَّرتيب المصحفيِّ، وصارت آخر سورة في المصحف، والمناسبة مدهشة بين ابتداء القرآن المجيد بالفاتحة المباركة، وختمه بسورة النَّاس:

- **سُورَةُ الفَاتِحَة**: تعريف للعالم بالإسلام ليهدي الإنسانية إلى ربها عز وجل.
- **سُورَةُ النَّاس**: حمايةٌ إلهيَّة للإنسانيَّة من الشُّرور الباطنية.
- **سُورَةُ الفَلَق**: حمايةٌ إلهيَّة للإنسانيَّة من الشُّرور الظَّاهرية القريبة والبعيدة.

الأساس الثالث: اسم السُّورة

خُتِمَ القرآن بسورة تحدثك عن (الناس)؛ ليبصرك ذلك بأن القرآن المجيد نزل للمصلحة البشرية، والنفع الإنساني

الأساس الرابع: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد عمود السُّورة

- **البقاعيُّ رحمه الله:** جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شرٍّ خاصٍّ، وهو الوسواس، وهو أخصُّ من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الدَّاخلة اللَّاحقة للنُّفوس البشريَّة
- **ابن عاشور رحمه الله:** السُّورة تدور حول إرْشَاد النَّبيِّ ﷺ لأَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّه رَبِّه عز وجل مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاس الَّذِي يُحَاوِلُ إِفْسَادَ عَمَلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِفْسَادَ إرشاده النَّاس.

الأساس الخامس: أهمُّ موضوعات السورة

- صفات الله الثلاث ﴿رب-ملك-إله﴾.
- الناس
- شر الوسواس.

الأساس السادس: محاور السُّورة

- **الأول:** الأمر بالاستعاذة، ﴿قُلْ﴾ [الناس:1].
- **الثاني:** صيغة الاستعاذة.
- **الثالث:** المستعاذ به.
- **الرابع:** المستعاذ منه (مشكاة النُّور في مجابهة أخطر الشُّرور)

النُّور الثَّاني

الأسس السِّتَّة التي تؤدِّي إلى معرفة الموضوع الكلِّيِّ لسورَة النَّاس

موضوع هذه السُّورَة الكلِّيُّ واضحٌ جدًّا، فاسمها يدلُّ عليه، ولزيادة تحديده يمكن أن نرجع إلى الأسس التي تحدِّد الموضوع الكلِّيَّ، وهي:

الأساس الأوَّل: النُّزول التَّاريخيُّ.

الأساس الثَّاني: التَّرتيب المصحفيُّ.

الأساس الثَّالث: اسم السُّورَة.

الأساس الرَّابع: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد الموضوع الكلِّيِّ للسُّورَة.

الأساس الخامس: أهمُّ مواضيع السُّورَة.

الأساس السَّادس: محاور السُّورَة.

الأساس الأوَّل: النُّزول التَّاريخيُّ

قد تسأل: متى نزلت سورة النَّاس؟ وهل هي مكِّيَّة أم مدنيَّة؟

أجيبك: هي سورة مكِّيَّة، ويظهر لي أنه تكرَّر نزولها في المدينة، فنزلت في العهد المكِّيِّ، ولكننا رأينا أنَّ جبريل عليه السلام نزل بها وبسورة الفلق مجدَّدًا في المدينة، مع أنهما نزلتا سابقًا في مكة، فلماذا؟

الجواب: نزل جبريل عليه السلام بهما في المدينة مجدَّدًا مع أنهما نزلتا في مكَّة؛ لبيان أهمِّيَّتِهما في مداواة النَّازلة الخطيرة، وهي السِّحر الذي سبق الكلام عنه.

وآياتها ستٌّ، نزلت بعد سورة الفلق، وَقَبْلَ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وعُدَّتِ السُّورَة العشرين حسب ترتيب سور القرآن في النُّزول التَّاريخيِّ [1]، وبذا يكون السِّياق التَّاريخيُّ لها في مكَّة ضمن الحماية العامَّة للرَّسول ﷺ ولكلِّ من يقرؤها إلى يوم الدِّين مؤمنًا، مستشعرًا، مخلصًا، ونزولها يرشد الناس إلى ربِّهم ﷻ، وملكهم، وإلههم الذي يحميهم من شرِّ الوسواس الخَنَّاس، فهي تعرِّف البشريَّة بربها ﷻ من خلال هذا الموضوع: موضوع الحماية من شرِّ الوسواس.

وأمَّا في المدينة فارتبطت بذلك أيضًا؛ إذ نزلت خاصَّة مع الفلق لتشكِّلا الحماية الخاصَّة لمن يقرؤهما من المخاطر المنظورة وغير المنظورة، وليبيِّن الله -تعالى ذكره- أنَّ أثرهما الحامي يتعدَّى الحماية من الأسقام والأوجاع المعتادة إلى الحماية من الأمور غير المنظورة كالسِّحر والعين.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ١٩٣)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣١).

الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ

ستسأل: ما ترتيب هذه السُّورَة حسب المصحف؟ وما المناسبة في هذا التَّرتيب؟

أجيبك: جاءت سورة النَّاس بعد سورة الفلق حسب التَّرتيب المصحفيِّ، وصارت آخر سورة في المصحف، وهنا ترى المناسبة المدهشة بين ابتداء القرآن المجيد بالفاتحة المباركة، وختمه بسورة النَّاس؛ إذ تجد في ذلك التَّرتيب المنطقيَّ البديع، والتَّسوير المعنويَّ المنيع:

فالفاتحة تعريفٌ بالله ﷻ، وحقِّه على عباده، وبيان لحقِّ البشريَّة في الحصول على هدايته لتنظِّم أمور حياتها وَفْقَ الصِّراط المستقيم، وهي المعوِّذة الأساسيَّة.

وأما المُعَوِّذتان: سورة النَّاس، وسورة الفلق **فتجدهما** نزلتا للمصلحة الإنسانيَّة، تعبِّر لك عن ذلك كلُّ آية من آياتهما، فكلُّها توصلك إلى أن هذه السُّورَة (الناس) لها هدف ظاهر هو: **(الحماية الربانية للإنسانيَّة من أصل الشُّرور الباطنة الخفيَّة)**، ولا يكون ذلك إلا بأن تتصل بربِّها حقَّ الاتِّصال، وتنبذ شرودها عن ربِّها، وتدافع عدوَّها اللَّدود إبليس وحزبه الثَّقافي وجنوده من الجنِّ والإنس.

والمعوِّذة الأولى: الفلق، تدور حول مصلحة الإنسانيَّة، حيث تدور حول حماية الإنسانيَّة من جميع الشُّرور الظَّاهرة والباطنة القريبة والبعيدة.

إذن: الفاتحة: تعريف للعالم بالإسلام ليهدي الإنسانيَّة إلى ربِّها ﷻ.

والمُعَوِّذتان: حمايةٌ إلهيَّة للإنسانيَّة من الشُّرور الباطنيَّة والظَّاهريَّة القريبة والبعيدة.

المُعَوِّذتان: نزلتا للمصلحة الإنسانية، تعبِّر لك عن ذلك كلُّ آية من آياتهما، فكلُّها توصلك إلى أن هذه السُّورة (النَّاس) لها هدف ظاهر هو: (حماية الإنسانيَّة من جميع الشُّرور الخفيَّة، والحفاظ على مصالحها)، والمعوِّذة الأولى: الفلق، تدور حول حماية الإنسانيَّة من جميع الشُّرور الظَّاهريَّة القريبة والبعيدة.

وتعال ننظر بصورة أعمق إلى المناسبة والاتصال بين سورتي الناس والفلق:

وستتساءل بصورة أعمق: ما العلاقة التَّفصيلية بين المُعَوِّذتين المتتابعتين: الفلق والناس؟

أجيبك: الاتِّصال بين المُعَوِّذتين العظيمتين واضحٌ بيِّنٌ:

فالعلاقة الأولى بينهما: أن سورة الفلق ترى فيها الاستعاذة بصفة واحدة لله ﷻ هي: ربُّ الفلق ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وتشعر من خلالها بقوَّة الله ﷻ على فَلْق الحقِّ من الباطل، والإصباح من الظُّلمة، والحياة من الموت.

وسورة النَّاس تسمع فيها الاستعاذة بثلاث صفات لله ﷻ، كلُّها تتعلَّق بالمصلحة الإنسانيَّة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣].

وأما العلاقة الثانية: فسورة الفلق استعاذة من الشُّرور الخارجيَّة الظَّاهرة والباطنة التي تحيط بالإنسان، وتتلخَّص في أربعة أنواع من الشُّرور:

الأول: الشُّرور العامَّة التي يتَّسم بها كلُّ مخلوق من الحيوانات والنَّاس وغيرهم، وقد يترتَّب عليها الأذى الجسديُّ أو النَّفسيُّ، وذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]، فكلمة ﴿خَلَقَ﴾ تشمل جميع المخلوقات المعلومة وغير المعلومة، والمرئية والخفيَّة، فتدخل فيها الميكروبات والبكتيريا الضَّارَّة، والأمراض والأوبئة كالفيروسات؛ ومنها فيروس كورونا (COVID-19) الذي عايش العالم أحداثه ومخاوفه وعرف الإنسانُ من خلاله حقيقة نفسه، وضعفه، واحتياجه إلى ربِّه ﷻ.

الثاني: شرُّ الفُسَّاق الذين يستغلُّون التَّغيُّر الزَّمنيَّ للحركة والإفساد وإلحاق الضَّرر بالآخرين، حيث تأتي الأوقات المظلمة التي يقلُّ فيها الأمن النَّفسيُّ والأمن العامُّ، ويتحرَّك فيها الأشرار بسهولة، وبصَّرنا الله ﷻ بهذا النَّوع من الشُّرور في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣]، فالغاسق مثل الليل، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: دخل، وقد تساءل البيحاني رحمه الله في زمانه:

سألت النَّاس ما هذا؟ فقالوا: هو الشَّرُّ الذي نخشى انبعاثَهْ
وقلتُ: أراه بينكم كثيرًا وظاهرُه يدُلُّ على الحَداثَهْ
فقال البعض: هذا من نفوس تنافست الزَّعامة عن خَبَاثَهْ
وقال البعض هذا من قديم تناقله ابنُ آدم بالوِراثَهْ

الثالث: شرُّ السَّحرة والسَّاحرات الذين يكيدون للمرء بالتَّعاون مع الجانب المظلم في الدُّنيا الذي يمثِّله الجنُّ، وقد يكيدون له وهم عنه بعيدون ويتمكَّنون من إيقاعه في أشدِّ الأذى، وبصَّرنا الله ﷻ بهذا النَّوع من الشَّرِّ في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤].

الرابع: شرُّ الحاسد الذي يصيب المحسود؛ إمَّا بالعين إن كانت لديه القدرة، أو بالتآمر والكيد ليل نهار، فنفسيَّة الحاسد ممتلئةٌ غمًّا، محترقةٌ عاطفةً وشعورًا، تتميزُ على المحسودِ غيظًا، وتتآكلُ حَنَقًا.

كلَّما رأى المحسود وَرِمَ أنفه، وامتلأت أوداجه دمًا وهمًّا ، يبحث عن سبل إيقاعه، ولا يفكِّر إلا في إنزاله من أماكن انتصاره ونجاحه، فأمرنا الله ﷻ أن نستعيذ به من هذا النَّوع من الشَّرِّ في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥] فالشُّرور التي تحمينا سورة الفلق منها بإذن الله ﷻ تتلخَّص في المصائب الخارجيَّة، فإذا توفَّرت لك الحماية من هذه الشُّرور

الخارجيَّة، فقد آن الأوان لتحمي نفسك من الشُّرور الذَّاتيَّة الدَّاخليَّة، وهنا تأتي سورة النَّاس، لتحميك من شرِّ الوسوسة، التي تنبثق عنها الشُّرور الذَّاتيَّة.

الوسوسة هي سبب الإحباط، واليأس، والشَّقاء، والذُّنوب والمعاصي كلِّها.

الوسوسة هي الشَّرُّ المدمِّر الأكبر الذي يحطِّم النَّفسيَّة الإنسانيَّة داخليًّا، حيث بصَّرنا الله ﷻ به في قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٤-٦].

سورة النَّاس تحميك من شرِّ الوسوسة، التي تنبثق عنها الشُّرور الذَّاتيَّة الدَّاخليَّة.

وأما العلاقة الثالثة: فتتعلَّق بنوع الشُّرور:

فالشُّرور التي عالجتها سورة الفلق تتلخَّص في شرِّ المصائب، ويرجع إلى ظلم الغير لك، وهي استعاذةٌ من شرٍّ لا يدخل تحت التَّكليف، ولا يطلب منك الكفَّ عنه؛ لأنَّه ليس من كسبك، فلا تستطيع أن تدفع شرَّ المصائب الخارجيَّة، وإنَّما الَّذي يدفعها عنك الله – تعالى –.

والشَّرُّ الذي عالجته سورة النَّاس يتلخَّص في شرِّ المعايب، فتضمَّنت الاستعاذة من الشَّرِّ الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شرٌّ يدخل تحت التَّكليف، ويتعلَّق به النَّهي، فتستطيع أن تدفعه عن نفسك بعون ربِّك ﷻ.

فسورة الفلق تتضمَّن الاستعاذة من شرِّ المصيبات، وسورة النَّاس تتضمَّن الاستعاذة من شرِّ العيوب التي أصلها كلُّها الوسوسة[1]. والشُّرور كلُّها ترجع إلى هذين النَّوعين.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٢٤).

الشُّرور التي عالجتها (سورة الفلق) تتلخَّص في شرِّ المصائب، ويرجع إلى ظلم الغير لك، والشَّرُّ الذي عالجته (سورة النَّاس) يتلخَّص في شرِّ المعايب، ويرجع إلى ظلم العبد نفسه.

وأما العلاقة الرابعة: فهي علاقة التَّكملة، وهي علاقة واضحة بصورة مدهشة، فمهما حاول أصحاب الشُّرور الأربعة -التي بصَّرتنا بها سورة الفلق- أن يحطمونا فلن تتمكَّن إلا إذا تحطمنا داخليًّا، وهنا تأتي سورة النَّاس لتحمينا من التَّحطُّم الدَّاخليِّ الرَّهيب؛ لأنها حماية من شرِّ الذي يوسوس في الصُّدور.

وأما العلاقة الخامسة: فالعموم والخصوص؛ فقد قال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله: «وجه تأخُّرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثَّانية، ألا ترى عموم قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]؟ فيدخل فيه الشَّرُّ الذي ذُكر في سورة النَّاس، فالوسواس الخَنَّاس يدخل فيمن خلقه الله ﷻ، فسورة الفلق عامَّة يُستعاذ بها من الشُّرور عامَّة.

وكذلك نلاحظ في سورة الفلق: إبهام ﴿ما﴾، وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾، و﴿حَاسِدٍ﴾، وكلُّ ذلك يدلُّ على العموم، فبدأ الله ﷻ بسورة الفلق التي تحوي الاستعاذة من الشُّرور كافَّة، فبدأ بالعموم، ثم أتبع بسورة النَّاس التي فيها الاستعاذة من شرٍّ خاصٍّ؛ ليكون أبلغ في تحصيل ما قُصِدت الاستعاذة منه، وأوفى بالمقصود»[1].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٢٦).

الأساس الثالث: اسم السُّورَة (سورة الناس)

ما اسم هذه السُّورَة التي نحاول استكشاف بصائرها؟

الجواب معروف، لكننا ينبغي أن نتنبه له: هذه هي السُّورَة رقم (١١٤)، فنحن على أعتاب آخر سورة في المصحف المجيد، واسمها اسم مثير: إنها سورة النَّاس، وقد ذكرها النَّبيُّ ﷺ فسمَّاها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، وعنون لها البخاريُّ رحمه الله، فقال: سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾[1].

إنَّ اسم السُّورَة يختصر لك موضوعها الكلِّيَّ، ويرشدك إلى عمودها الذي قامت عليه، بيد أنك بحاجة أكبر إلى جمع مفردات أخرى تشكِّل مع اسم السُّورَة عبارة أشمل، وجملة أوسع، ومعنى أكثر تفصيلًا لتكتمل الصُّورة في عين المشاهد إلى جمال معاني كلام العزيز جلَّ شأنه.

لماذا هذه التَّسمية العظيمة؟

الجواب: التَّسمية بهذا الاسم تجعلك تشعر بأن ختم القرآن الكريم كان في غاية الوضوح.

لقد خُتِم القرآن بسورة تحدِّثك عن (الناس)؛ ليبصِّرك ذلك بأن القرآن المجيد نزل للمصلحة البشريَّة، والنَّفع الإنساني، ولتشعر أيضًا بقرب القرآن منك ولك وملامسته لدواخلك وخلجات قلبك، وانسيابه بين مسالك الحياة روحًا تعيد لك الثِّقة بنفسك، وتكشف لك معايبها، لتصلحها مستعينًا بربِّك وإلهك وملكك، الذي لا غنى لك عنه طرفة عين.

---

(١) البخاري (٦ / ٢٢٣).

ولذلك فإن لكلِّ سورة من اسمها نصيبًا، ولا بد من وجود آية في كلِّ سورة يَرِدُ فيها اسمُ السُّورَة بشكل واضح، وقد تكون هذه الآية هي خلاصة ما في السُّورَة أو شفرة الوصول إلى مقصد السُّورَة كلِّها وموجزها.

خُتِم القرآن بسورة تحدِّثك عن (النَّاس)؛ ليبصِّرك ذلك بأن القرآن المجيد نزل للمصلحة البشريَّة، والنَّفع الإنسانيِّ.

وقد تسأل: فلماذا جعلتَ موضوع السُّورَة الكلِّيَّ داخليًّا مع أن اسمها خارجيٌّ؟

أجيبك: بأنَّ اسم السُّورَة (الناس) وإن كان عامًّا خارجيًّا، إلا أنه يختصُّ بكلِّ إنسان على انفراد، فالإنسان جزء من الناس، ويدخل الجزء في الكلِّ، والوسوسة الحاصلة من الجنِّ والنَّاس، هي ما ينعقد في صدر الإنسان من إرادة الشَّرِّ، والإقبال على اقتراف سيئ القول والفعل، فرجعت التَّسمية إلى الخصوص، والله أعلم.

إذا ما خلوت بنفسك بعيدًا عن النَّاس فأنت بحاجة إلى سورة النَّاس، لأنك في معركتك مع نفسك الأمَّارة بالسُّوء، الغلَّابة لك بالميل إلى الشَّهوات والملذَّات، بحاجة إلى قوَّة دافعة، وبصيرة مانعة، وعزيمة رافعة، وذلك كلُّه في حنايا سورة النَّاس.

الأساس الرابع

مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد الموضوع الكلِّيِّ لسورة النَّاس

هاهو البقاعيُّ رحمه الله يحاول تحديد موضوع كلِّيٍّ للسُّورَة، فيقول: «لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شرِّ ما خلق من جميع المضار البدنيَّة وغيرها، العامَّة للإنسان وغيره، ثم وقع فيها التَّخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والسَّاحر والحاسد، جاءت سورة النَّاس متضمِّنة للاستعاذة من شرٍّ خاصٍّ، وهو الوسواس، وهو أخصُّ من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الدَّاخلة اللَّاحقة للنُّفوس البشريَّة التي أصلها كلُّها الوسوسة، فقد تضمَّنت السُّورَة كالفلق استعاذة، ومستعاذًا به، ومستعاذًا منه، وأمرًا بإيجاد ذلك»[1].

ووجدت ابن عاشور رحمه الله يذكر أن أغراض السُّورَة تدور حول إِرْشَاد النَّبيِّ ﷺ لِأَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللهِ رَبِّهِ ﷻ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُحَاوِلُ إِفْسَادَ عَمَلِ النَّبيِّ ﷺ، وَإِفْسَادَ إرشاده النَّاس، وَيُلْقِي فِي نُفُوسِ النَّاسِ الْإِعْرَاضَ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَفِي هَذَا الْأَمْرِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُعِيذُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَعَاصِمُهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ تَسَلُّطِ وَسْوَسَةِ الْوَسْوَاسِ عَلَيْهِ، وَمُتَمِّمُ دَعْوَتِهِ حَتَّى تَعُمَّ فِي النَّاسِ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ تَعْلِيمُ الْمُسْلِمِينَ التَّعَوُّذَ بِذَلِكَ[2].

فإذا كان النَّبيُّ ﷺ ينبغي أن يستعيذ من شرِّ الوسواس، فأولى أن يقوم بذلك غيرُه من الناس.

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٢).

الأساس الخامس: أهمُّ موضوعات سورة الناس

قد تسأل: ما أهمُّ الموضوعات التي نجدها في سورة النَّاس؟

الجواب: دارت السُّورَة حول ثلاثة مواضيع أساسيَّة:

١) صفات الله ﷻ الثَّلاث (رب -ملك -إله).

٢) النَّاس.

٣) شرُّ الوسواس.

الموضوع الأول: صفات الله ﷻ الثَّلاث (رب -ملك -إله)، وهي صفات مطلقة:

فالله ربُّ العالمين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢].

وملك العالمين: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٨﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١٢٠﴾ [المائدة: ١٢٠]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، وإله العالمين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ [طه: ٨٤]، لكنَّ الله ﷻ عرَّف نفسه هنا بالإضافة إلى النَّاس، وهنا يأتي:

الموضوع الثاني: النَّاس، فترى تقرُّب الله ﷻ إليهم، بإضافة ثلاث من أعظم صفاته سبحانه إلى كلمة (الناس):

وهنا تشعر بعظيم تحبُّب الله ﷻ إلى الإنسانيَّة، كما أن السُّورَة سمِّيت باسمهم، وهي في الدِّفاع عنهم.

الموضوع الثالث: شرُّ الوسواس:

فهو موضوع يتعلق بشرٍّ خاصٍّ باطنيٍّ، يقذفه الآخرون من الجنِّ والإنس في باطن الإنسان، وأهدى الله ﷻ كلمات السُّورَة للحماية من هذا النَّوع من الشُّرور.

الأساس السَّادس: محاور السُّورَة

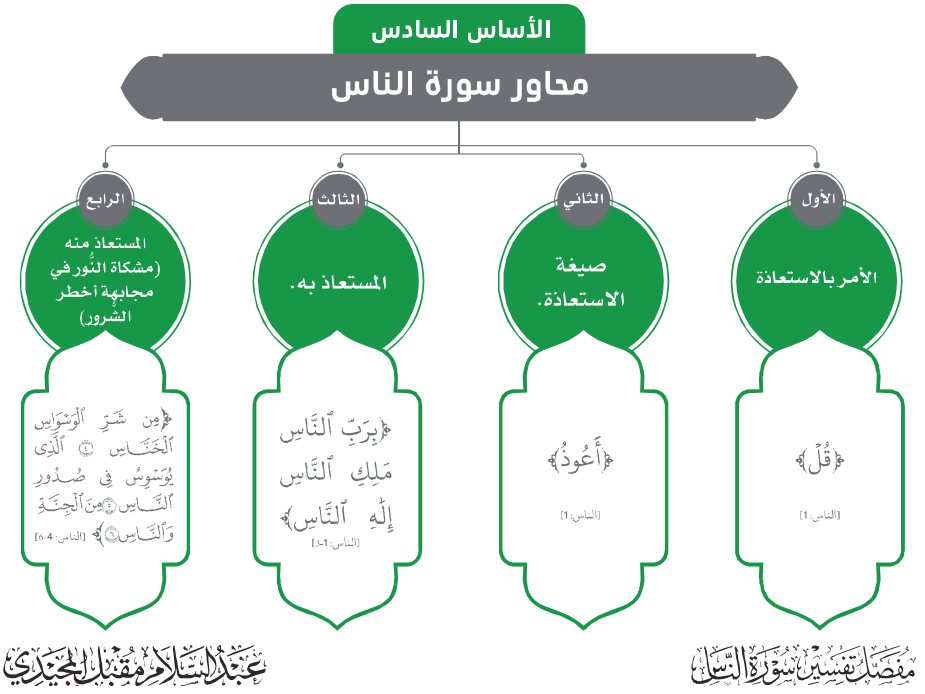

تكونت السُّورَة من أربعة محاور:

الأول: الأمر بالاستعاذة، والمستعيذ وهو (أنت)، وبصَّرنا بهما قول ربِّنا ﷻ: ﴿قُلۡ﴾ [الناس: ١]، والضَّمير المستتر وجوبًا فيه، فالتقدير: قل أنت أيها السامع.

الثاني: صيغة الاستعاذة، وبصَّرنا بها قول إلهنا ﷻ: ﴿أَعُوذُ﴾ [الناس: ١]، إلا أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمنا أنَّ صيغة الاستعاذة هي السُّورَة كلُّها.

الثالث: المستعاذ به، وبصرنا به قول مولانا ﷻ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣].

الرَّابع: المستعاذ منه، وبصَّرنا به قول الملك الحقِّ الرَّحمن: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

وبعد ما سبق يمكننا أن نقرِّر أنَّ الموضوع الكلِّيَّ لسورة النَّاس:

(المحافظةُ الرَّبانيَّةُ على الإنسانيَّةِ وحمايتُها مِنْ أصلِ الشُّرورِ الخَفِيَّةِ)

فقد تركَّز الحديث على حماية النَّاس من شر الوسوسة والوسواس، وهما أسوأ الشُّرور الخفيَّة التي يهاجم بها العدوُّ من الجنِّ والإنس، وبذا ترى أنَّ موضوع سورة النَّاس واضح جدًّا من تسميتها، فتسميتها موضوعيَّة، لكن كلمة ﴿النَّاس﴾ عامَّة، والسُّورَة بصَّرتنا بأنَّ الكلام عن أمر خاصٍّ في حياة النَّاس، هو حمايتهم من شرٍّ خاصٍّ جدًّا، وهو أصل الشُّرور، وهو شرُّ الوسواس الخَنَّاس.

إنها تمثِّل حماية كاملة، ومعاذًا حصينًا يحمي الإنسانيَّة من هذا الشَّرِّ الدَّاخليِّ الأعظم: شرِّ الوسوسة والوسواس.. إنه الشَّرُّ الذي لا يستطيع النَّاس معرفته بيسر، ولا يستطيعون دفعه وحدهم.. إنه شرُّ الوسوسة التي تسرُّ بها البطانة الإنسيَّة والجِنِّيَّة، القريبة أو البعيدة، فالوسوسات قسمان: قريبة، وبعيدة.

يمكن أن نقول بيُسر بأن الموضوع الكلِّيَّ لهذه السُّورة المباركة: المحافظة على الإنسانية وحمايتها من أصل الشُّرور الخفيَّة، وأصل الشُّرور الخفيَّة شرُّ الوسوسة والوسواس، فهما أسوأ ما يدمِّر الحياة، ويحيل حياة الإنسان إلى الفسق أو الإجرام أو الضَّلال أو الإحباط والإياس.

أنواع الوسوسات:

أولًا: الوسوسة القريبة:

وستتساءل: وما الوسوسات الإنسيَّة، والجِنِّية القريبة؟

الجواب: الوسوسات الإنسيَّة والجِنِّية القريبة هي التي تشعر بأنها تصب الأفكار السَّيِّئة في عقلك وقلبك وعاطفتك صبًّا، وأمرها واضح؛ إذ إنك تحس بمن يلقي في نفسك أنواعًا من الأفكار السَّيِّئة التي تتمنى أنك لم تعرفها، وقد شعر الصَّحابة ﷺ بذلك، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ -يُعَرِّضُ بالشيء- لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً -أي فحمًا ورمادًا وكل ما احترق من النار- أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»[1].

ثانيًا: الوسوسة البعيدة:

ستقول: وما الوسوسات الإنسيَّة والجِنِّية البعيدة؟

الجواب: هي التي تسمعها بصورة مباشرة من أجهزة الإعلام ووسائل التَّواصل، فهي تملك قدرة جبارة هائلة على تدمير الأفكار الصحيحة، وملء العقول والحياة بزيف الأفكار الباطلة الظَّالمة الآثمة، وتصويرها على أنها الحقُّ الذي يجب اتِّباعه:

لك أن تتصوَّر الوسوسة التي تصدرها وسائل الإعلام والتَّواصل والتَّفاصيل المختلفة، ومقدار تأثيرها في قرارات الإنسان، ورسم خطواته، وتصوَّرْ فقط مراكز صنع الرأي العامِّ في الوقت الحاضر.. تصوَّرْها وهي تُعمِل جهودها الجبارة في تصوير الفاسد صالحًا، والصَّالح فاسدًا.. تصوَّرْ وسوساتها الإعلاميَّة التي تدمِّر التَّفكير، وتخدع العقل، وتزيِّن له سوء العمل،

(١) أحمد (٢٠٩٧)، وصحَّحه الأرناؤوط، والألباني في صحيح أبي داود (٥١١٢).

فتصوِّرُ الزِّنا حريَّة شخصيَّة، وإن كان خطيئة، فهو مجرد رعونة عارضة.. تصوَّرْها وهي توسوس للعقول الإنسانيَّة بأن الخمر يمثِّل قمة الرُّجولة، وأعلى درجات البطولة لمن يحتسي منه أكبر قدر ممكن.. تصوَّرْها وهي تجعل أكبر مجرمي العصر يمتلكون الشرعية لقتل الشعوب، وتسعير الحروب تحت مسمَّى الشَّرعيَّة الدولية.. تصور آلات الوسوسة الإنسيَّة وهي تتحرك بأزٍّ من شياطين الجنِّ لتجعل الفاحشة حريَّة ضروريَّة، وعقوق الوالدين استقلالًا، وقتل الأطفال في الأجنَّة حرِّية اختيار، وليس جريمة متكاملة.. يحدثنا النَّبيُّ ﷺ عن هذا النَّوع الخطير من الوسوسة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ [1]».

وهنا تسمع النَّاصح الأمين يقول لك:

زيفٌ وإنْ خَالَبَ الأبصارَ ظاهرُه ... فليس يَخْدَع عينَ العاقلِ الحذرِ
زيفٌ وإنْ خَالَبَ الأبصارَ ظاهرُه ... والجهلُ أمضى بلاءً من عمى البصرِ
انهض أخي وانظرِ التَّمييزَ منتشرًا ... باسم المساواةِ زُورًا غير مُنْزَجَرِ
وكيف ترجو مع التَّزوير مَكْرُمةً ... في عصر بغيٍ بثوب العدل مُؤْتَزِرِ

(١) أحمد (٨٤٤٠) بسند حسنه الأرناؤوط، أبو داود (٤٠٣٦)، وحسَّنه الألباني بمجموع طرقه. الصحيحة (١٨٨٧).

أجهزة الإعلام ووسائل التَّواصل، تملك قدرة جبَّارة هائلة على تدمير الأفكار الصحيحة، وملء العقول والحياة بزيف الأفكار الباطلة الظَّالمة الآثمة، وتصويرها على أنها الحقُّ الذي يجبُّ اتباعه.

ولعلك تسأل: ما العلاقة بين سورة النَّاس والمؤثِّرات الذَّاتيَّة والخارجيَّة التي تؤثِّر على قرار الإنسان، وفكره؟

الجواب: سورة النَّاس تملأ نفسك بالإحساس بالخطر الكبير لكلِّ المؤثِّرات التي تؤثِّر في تفكيرك:

وأوَّل هذه المؤثِّرات: تأثير الوسوسة الجِنِّيَّة على نفسك، فصاحبها يتمتع بمزايا تجعلك تطمئن إلى الغفلة عن عداوته، فهو لا يُرى ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ولا يُسمع سماع صوت حسِّيٍّ في الغالب، وحينها ترخي دفاعاتك عنه، فيتمكَّن من اصطيادك دون أن تشعر أنه يوجد، أو أنه يوسوس لك، بل ربَّما تكون ممن ينكر وجوده مثل المساكين الغافلين عن حقائق الخلق.

وثاني هذه المؤثِّرات: التَّأثيرات الإنسيَّة التي تهاجمك من أصدقاء السوء، أو من إعلام الشر، أو من المناهج التَّعليميَّة والثَّقافيَّة التي تُقَدَّم في ثوب العلم، والأسوأ ما يوسوس به المنحرفون تحت مسمَّى حقوق الإنسان، حيث يصادرون أهمَّ الحقوق الأساسيَّة للإنسان.

سورة النَّاس عند فهمك لها تبصِّرك بأهمِّيَّة البطانة الصالحة، ويأتي التَّأكيد عليها من موقع هذه السُّورَة في القرآن الكريم.

سورة النَّاس تملأ نفسك بالإحساس بالخطر الكبير الذي يحاول أشرار الجنِّ والإنس من أصحاب الشَّرِّ المستطير، فَهُمْ يحاولون السَّيطرة عليك من خلال المؤثِّرات التي تؤثِّر في تفكيرك، مثل وسائل التَّعليم والإعلام والتَّواصل التي تحاصرك في ليلك وصبحك ومسائك وهجيرك، وهنا تبصر أهمِّيَّة البطانة الصَّالحة، والمؤثِّرات الطَّيِّبة الرَّاجحة.

التَّفسير التَّفصيليُّ لسورة النَّاس

محاور سورة النَّاس

سورة النَّاس تضمَّنت استعاذة، ومستعاذًا به، ومستعاذًا منه، وأمرًا بإيجاد ذلك [1]، ولذا تكوَّنت هذه السُّورَة من أربعة محاور:

المحور الأول: الأمر بالاستعاذة، والمستعيذ وهو (أنت)، وبصَّرتنا بذلك كلمة: ﴿قُلْ﴾.

المحور الثاني: صيغة الاستعاذة.

المحور الثالث: المستعاذ به.

المحور الرابع: المستعاذ منه (مشكاة النُّور في مجابهة أخطر الشُّرور).

المحور الأول

الأمر بالاستعاذة، والمستعيذ وهو (أنت)، وبصَّرتنا بذلك كلمة: ﴿قُلْ﴾، فالآمر هو الخبير الرَّحمن الرَّحيم اللَّطيف، والمأمور المستعيذ الفقير الضَّعيف

المفاجأة هنا أنَّ المستعيذ عُبِّر عنه في السُّورَة بكلمة واحدة: هي الضَّمير الذي جاء في الأمر الحازم الجازم المشفق ﴿قُلْ﴾، فالمستعيذ هو كلمة (أنت)، وهذه الكلمة ضمير مستتر وجوبًا، والتقدير: قل أنت يا رسول الله، قل أنت أيُّها المسلم، قل أنت أيُّها القارئ، قل أنت أيُّها السامع.

وربَّما يُثار عندك السُّؤال: لماذا اقتصرت السُّورَة على كلمة واحدة تعبِّر عن المستعيذ هي الضَّمير المستتر وجوبًا؟ لماذا لم يُزد في الكلام، فيقال: إن أردت أن تستعيذ أيها الإنسان...؟

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٤)، وربما عنه نقل البقاعي في: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٢٥).

الجواب: التَّعبير في هذه السُّوَر التي تسمَّى بالقواقل تعبير يرتقي بالإنسانيَّة إلى حيث لا تتصوَّر من الرِّفعة والخير.

البصائر المتعدِّدة التي تحبونا بها كلمة: ﴿قُلْ﴾:

فأول سؤال يتعلَّق بكلمة ﴿قُلْ﴾: ما الذي تحبونا به هذه الكلمة ﴿قُلْ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا تحبوك ببصائر متعدِّدة:

بصيرة [١]: ﴿قُلْ﴾ تنبِّئك بأن القرآن للتَّعليم والإعلام والتَّبليغ، وليس للاستمتاع بتلاوته فقط، فمعنى ﴿قُلْ﴾: أي بلِّغ، وعلِّم، وأنشئ، وأخبر، فينبغي الحرص على القيام بنشر القرآن المجيد في محاضن التَّعليم، ووسائل الإعلام، والسَّعي لتبليغه في العالم.

فكلمة ﴿قُلْ﴾: تقتضي أن تحرِّك لسانك.

كلمة ﴿قُلْ﴾: من قال يقول قولًا، وتعني: نطق فتكلَّم مِقْوَلُه -أي: لسانه- بكلمة، هي (القول)، والقَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركَّب من الحروف، المبرز بالنُّطق، مفردًا كان أو جملة، فالمفرد كقولك: زيد، وخرج، والمركَّب، زيد منطلق.

وتكرَّر الأمر ﴿قُلْ﴾ في القرآن نحو: (٣٣٢) لتوجيه الأمر المباشر للرسول ﷺ، ولكلِّ قارئ أو سامع بما يناسب السِّياق.

كلمة ﴿قُلْ﴾: تعني أن تحرِّك لسانك مردِّدًا الكلمات التي في سورة النَّاس، والأصل أن ذلك مع حركة اللسان، ويمكن أن يطلق القول على ما في النَّفس، لكنَّ الأصل أن تحرِّك لسانك عند النُّطق بهذه الكلمات.

ولأن ﴿قُلْ﴾ تقتضي الكلام، والتَّعليم، والإعلام، والتَّثقيف، والتَّوجيه، فقد وجدنا خير من يُطَبِّقُ ذلك النَّبيَّ ﷺ، حيث كان حريصًا على التَّعليم الفرديِّ والجماعيِّ؛ فعن ابْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ ﷺ أَنَّ فَاطِمَةَ ﷺ شَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ أَثَرِ الرَّحَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ، فَانْطَلَقَتْ، فَلَمْ تَجِدْهُ، فَوَجَدَتْ عَائِشَةَ ﷺ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ ﷺ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ ﷺ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا، وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ لأَقُومَ، فَقَالَ: «عَلَى مَكَانِكُمَا». فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، وَقَالَ: «أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَانِي، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»[1].

وتعليمه ﷺ منتشر فاش.. حسبك أن تبحث عن كلمة: أعلِّمك، وأعلِّمكم في الأحاديث لتراه ﷺ شديد الحرص على تطبيق مقتضيات ﴿قُلْ﴾ في نشر العلم الحقِّ في العالم.

﴿قُلْ﴾ تنبئك بأن القرآن للتَّعليم والإعلام والتَّبليغ، وليس للاستمتاع بتلاوته فقط، فمعنى قل: أي بلِّغ، وعلِّم، وأنشئ، وأخبر، فينبغي الحرص على القيام بنشر القرآن المجيد في محاضن التَّعليم، ووسائل الإعلام، والسَّعي لتبليغه في العالم.

(١) البخاري (٣٧٠٥).

بصيرة [٢]: ﴿قُلْ﴾ تبصِّرنا برحمة الله ﷻ بعباده، حيث علَّمهم ما يجهلونه، وأمرهم أن يعملوا به، فـ﴿قُلْ﴾ فعل أمر يجعل السَّامع ينهض مستجيبًا لله ﷻ إذا أمره، فيتعلَّم كيفية الاستعاذة، ويقوم بها.

وربَّما تسأل: لكنني عندما أستعيذ بالله ﷻ في سورة النَّاس أردِّد السُّورَة كاملة بما في ذلك كلمة ﴿قُلْ﴾ في أوَّلها، فأداة الاستعاذة كلُّ سورة النَّاس، وليس التَّطبيق لفعل الأمر أن يقول الإنسان: أعوذ برب النَّاس، ملك النَّاس...؟

الجواب: هذا الكلام صحيح إلا أننا عندما نستعيذ بسورة النَّاس لا بد أن نردِّدها جميعًا بما في ذلك الأمر في أوَّلها؛ لأننا نستعيذ بالقرآن، وكلُّ كلمة في السُّورَة قرآن كما نردِّد في الدُّعاء آخر آيتين من سورة البقرة على الرغم من أنَّ رسول الله ﷺ قد بشَّرنا بأنَّ الله ﷻ استجاب الدُّعاء الموجود فيهما، لكنهما بكلِّ كلمة فيهما يظلَّان دعاء، كذلك سورة النَّاس تظلُّ استعاذة بكلِّ كلمة فيها، وقد اتَّبعنا في ذلك النَّبيَّ ﷺ، حيث كان يُعَوِّذ نفسه وغيره بهما كاملتين.

المحور الثاني: صيغة الاستعاذة

هنا يأتي سؤال: قد علَّمنا أن سورة النَّاس "مُعَوِّذة"، أي تعوِّذ الإنسان، فما صيغة الاستعاذة حتى نجد المعاذ؟

الجواب: صيغة الاستعاذة هنا هي سورة النَّاس كلها، وبصَّرنا بها قول إلهنا: ﴿قُلْ﴾ [الناس: ١]، إلا أن النَّبيَّ ﷺ علَّمنا أن صيغة الاستعاذة هي السُّورَة كلُّها بدءًا من كلمة ﴿قُلْ﴾.

> **بصيرة [٣]: الفعل المضارع في قولك: ﴿أَعُوذُ﴾ يصوِّر لك الإنسان الخائف القلق الباكي يبحث عن أعظم الحصون الحامية.**

قد تتساءل: كيف عبَّرت كلمة ﴿أَعُوذُ﴾ عن أعظم درجات الضَّعف الإنسانيِّ، وأشدِّ درجات اللَّهفة والاستجداء بالحمى الرَّحمانيِّ؟

الجواب: هذا الفعل المضارع ﴿أَعُوذُ﴾ مشتقٌّ من كلمة (عاذ، وأصلها عَوَذَ)، وتعني لجأ، ولاذ، واحتمى، واعتصم مستنصرًا بصُلْبٍ قويٍّ حتى لزمه لزومًا متماسكًا جدًّا، حتى التصق به أو كاد، فَحَماه لئلا يحلَّ به ما يكره: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [الدخان: ٢٠]، ومنه "العُوَّذ من اللحم" - كسُكَّر-: ما عاذ (من اللحم) بالعَظْم ولَزِمه[(١)].

فإذا قلت ﴿أَعُوذُ﴾ فإنَّ ذلك يعني: ألوذ، وألجأ، وأحتمي، وأستجير بالله ﷻ طالبًا الالتصاق بقوَّته الحافظة العظيمة القديرة، وقدرته المانعة الحافظة المجيرة، وحمايته التي لا ترام، وجنابه الذي من لاذ به فلا يُهان، ولا يُضام.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٨٣)، المعجم الاشتقاقي (٣/ ١٤٢٦).

يدلُّنا زمن المضارعة في ﴿أَعُوذُ﴾ أن طبيعة الوسوسة التي تعرض للناس في استمرار، إذ قابلت الآية ذلك بصيغة تفيد تجدُّدَ لَوْذِ الناس إلى الله تعالى في يومهم وليلتهم، وحاجتهم إلى لطفه بهم، ونظره إليهم بعين رحمته.

إنها ﴿أَعُوذُ﴾ ردِّدها، واملأ قلبك ببشرها، وأنر حياتك بضيائها، لكأنك فيها تقول ما ردده أحمد محرم

هِدايتَكَ اللَّهُمَّ إنَّا نَخُوضُهَا ... غَيَاهِبَ دهرٍ ذي أعاجيبَ حَالِكِ
أَعُوذُ بربِّ النَّاسِ مِنْ كلِّ ظالمٍ ... وأَشْكُو إليه كلَّ خَصْمٍ مُمَاحِكِ
أَعُوذُ بِهِ مِنْ كلِّ سُوءٍ وأَحْتَمي ... بِأَسمائِهِ مِنْ كلِّ عادٍ وفَاتِكِ[1]

فعذ بالله ﷻ، وقل:

يا مَنْ أَلُوذُ به فيما أُؤَمِّلُهُ ... ومَنْ أعوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
وَمَنْ تَوَهَّمْتُ أنَّ البَحرَ راحَتُهُ ... جُودًا وأنَّ عطاياها جُوَاهِرُهُ
لا يَجْبُرُ الناسُ عظمًا أنت كاسِرُهُ ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابِرُهُ[2]

فكلمة ﴿أَعُوذُ﴾ هي صيغة الاستعاذة، لكنَّ الحقيقة أن السُّورَة كلَّها صيغة للاستعاذة، بما فيها ﴿قل﴾ فكأنك تخاطب نفسك حينما تقرؤها منفردًا أو سرًّا، كما يخاطب الإنسان الخائف نفسه في محلِّ الخوف كأن يكون قد تاه في واد سحيق، أو صحراء قاحلة، فيقول لنفسه في نفسه؛ قل: سأنجو وأخرج سالمًا، وأعود إلى أهلي وداري بخير وسلام، فالإنسان يحدِّث نفسه عند الخوف وساعات الانكسار والانهيار، وهذا ما يسميه علماء النفس بـ

(١) ديوان أحمد محرم (ص: ٢٩٧).

(٢) وكان المتنبي أجدر أن يعوذ بالله، ويردد أبياتًا كالجواهر قالها في غير الله. ديوان المتنبي (١/ ٣٨).

(الوسوسة القهريَّة)، غير أنَّ المؤمن يغالب نفسه فيجعلها تلاوة لكلام ربِّه وذكرًا واستغفارًا، وإنَّ من أعظم ما يزيل خوفه، ويبدِّد قلقه، ويزيل وحشته، ويعيد ثقته بنفسه والأمل في نجاته وشفائه أن يردِّدَ هاتين السُّورتين العظيمتين، ويبصِّرنا بهذا حديث أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، ثُمَّ أَعْيُنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ المُعَوِّذتان، أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ» (١).

فإذا قلت ﴿أَعُوذُ﴾ فإن ذلك يعني: ألوذ، وألجأ، وأحتمي، وأستجير بالله ﷻ طالبًا الالتصاق بقوَّته الحافظة العظيمة القديرة، وقدرته المانعة الحافظة المجيرة، وحمايته التي لا ترام، وجنابه الذي من لاذ به فلا يُهان، ولا يُضام.

(١) الترمذي (٢٠٥٨)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجة (٣٥١١)، واللفظ له، وصححه الألباني.

المحور الثالث: المُسْتَعَاذُ بِهِ

المستعاذ به الله ﷻ، وقد بَصَّرْنا الله ﷻ أن نذكر ثلاث صفات له عندما نستعيذ به هذه الاستعاذة الخاصة:

الصِّفة الأولى: ربُّ الناس:

هنا ترى أمجاد الرَّحمة! فقد أضاف الله ﷻ كلمة ﴿ربِّ﴾ إلى كلمة ﴿النَّاسِ﴾، وقد ذكرنا في أفياء الفاتحة ثلاثة معانٍ لهذه الكلمة المجيدة:

الأول: الربُّ هو السيِّد المطاع.

والثاني: المربِّي المصلح للشيء، أي: المربِّي للخلق حالًا فحالًا.

والثالث: المالك للشيء.

ولكنك تضيف لها معنى رابعًا لا يتَّصف به إلا (ربُّ العالمين).

فما معنى: أن يكون الله ﷻ: سيِّد العالمين المطاع؟

ما معنى: أن يكون الله ﷻ: المُرَبِّي المصلح للعالمين؟

ما معنى: أن يكون الله ﷻ: المالك للعالمين؟

ذلك يعني: أنه الخالق للعالمين.

فربُّ الناس: يعني خالقهم، وسيِّدهم الذي يربيهم حسب الأصلح لهم فيدبِّر أمورهم، ويحميهم ممَّا يفسدهم، وهو في الوقت ذاته مالك لهم، وهذه المعاني الأربعة المنبثقة من كلمة ﴿ربِّ﴾ تتضمَّن قدرته التَّامَّة، ورحمته الواسعة، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وفضله بإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم، فهي تستلزم جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وهو سبحانه ربُّ العالمين أجمعين ومنهم الناس؛ لكنه أضاف كلمة ﴿ربِّ﴾ إلى الناس؛ ليظهر

مزيد العناية بهم؛ إذ الِاسْتِعَاذَةُ وَقَعَتْ مِنْ شَرِّ الْمُوَسْوِسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَعُوذُ مِنْ شَرِّ الْمُوَسْوِسِ إِلَى النَّاسِ بِرَبِّهِمُ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ، وَهُوَ إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ، كَمَا يَسْتَغِيثُ بَعْضُ الْمَوَالِي إِذَا اعْتَرَاهُمْ خَطْبٌ بِسَيِّدِهِمْ وَمَخْدُومِهِمْ وَوَالِي أَمْرِهِمْ يَا رَبِّي يَا مَلِكِي يَا إِلَهِي[1].

ربُّ الناس: يعني خالقهم، وسيِّدهم الذي يربِّيهم حسب الأصلح لهم، فيدبِّر أمورهم، ويحميهم ممَّا يفسدهم، وهو في الوقت ذاته مالك لهم.

عندما يردِّد الإنسان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ويذكر أنَّ الله ربُّ العالمين ربَّما يتعجَّب، فلماذا كانت هذه الإضافة الشَّريفة؟

الجواب: أما أولًا: فالإنسان يشعر بلذَّة هذه الإضافة الشَّريفة، فالله المربِّي للناس، والإضافة تمنحهم سعادة الإيناس، فلن يتركهم لعدوِّهم إنِ اختاروا جنابه، وطرقوا أبوابه، فقد ألهم كلَّ نفس فجورها وتقواها؛ إلا أن إقامتها على تقواها لا بدَّ فيها من المجاهدة لميل النَّفس إلى الكسل والشَّهوات السَّقيمة، كما يميل الناس إلى التَّضرُّع والتَّذلُّل للمخلوق بدلًا من التَّضرُّع للخالق، وشَعَرَ محمد العيد آل خليفة رحمه الله بذلك، فقال:

والشَّـــرُّ في الإنســـان طَبْعٌ ثابـتٌ ... والخير في الإنســـان محضُ تطبُّعِ

مـا ردَّ كيـدَ النـاسِ عنـك تضـــرُّعٌ ... فاصـــرف لربِّ الناس كلَّ تضـــرُّعِ[2]

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٦).

(٢) ديوان محمد العيد آل خليفة (ص: ١٣٩).

وهذه اللَّذَّة هي التي يشعر بها عند كلمة (ربِّ) في مواضعها، وذلك مثل تكرار النَّبيِّ ﷺ قوله: أنت ربي، كقوله ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ»[1]، ومثل قوله ﷺ: «أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[2].

ثانيًا: يشعر الإنسان بالحماية الخاصَّة التي يجدها من ربِّ النَّاس، فهو ربُّ العالمين، لكنه خصَّ الناس بمزيد فضل، وعناية، وتكريم، وعندها يجد الإنسان لذَّة هذه الإضافة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وربما ردد قول حسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

تَعَالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْل مَن دَعا ... سِوَاكَ إلهًا أنْتَ أعْلَى وَأمْجَدُ

لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كلُّهُ ... فإيَّاكَ نَسْتَهْدي وإيّاكَ نَعْبُدُ[3]

فإن سألت: ما الذي تضفيه الآية بذكر الرُّبوبيَّة ﴿بربِّ﴾ في الاستعاذة ﴿أعوذ﴾؟

الجواب: فصفة الرُّبوبيَّة أليق بالحماية، والإعانة، والرِّعاية، والخلق، والتَّدبير، والتَّربية، والإصلاح، وتتضمَّن القدرة التَّامَّة، والرَّحمة الواسعة، والإحسان الشَّامل، والعلم الكامل، قال تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أعتصم به، أي: أسأله أن يكون عاصمًا لي من العدو أن

(١) البخاري ((٦٣٢٣).

(٢) مسلم (١٧٦٢).

(٣) ديوان حسَّان بن ثابت رضي الله عنه (ص: ٥٥).

يوقعني في المهالك، قال المَلَويُّ رحمه الله: «والرَّب من له ملك الرِّق، وجلب الخيرات من السماء والأرض وإبقاؤها، ودفع الشُّرور ورفعها، والنَّقل من النَّقص إلى الكمال، والتَّدبير العام العائد بالحفظ والتَّتميم على المربوب»[1].

سورة "الناس" تشعرك بالحماية الخاصَّة من ربِّ الناس، فهو ربُّ العالمين، لكنه خصَّ الناس بالذِّكر في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ ليظهر لهم مزيد فضلهِ لهم وتكريمه وعنايته، ويبيِّنَ لهم وتدبيره لحياتهم ورعايته.

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٥).

الإيناس بجمال كلمة (النَّاس):

بصيرة [٤]: (النَّاس) كلمة تكشف لنا الطَّبيعة البشريَّة؛ إذ تدور حول ثلاثة معانٍ: الأُنس، والنَّوس وهو الحركة، والنِّسيان.

فالناس اسم من أسماء الجموع حذفت فاؤه تخفيفًا، أصله (أُناس) فوزنه (فُعال)، فترى الهمزة في قولك: إنسان، وإنس، وأناسي، وهو جمع إنسان وإنسانة، على غير اللَّفظ، وتصغيره نويس[١].

(١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) (١/ ٢٣٩)، تفسير الألوسي (روح المعاني) (١ / ١٤٣).

واختلاف العلماء في أصل اشتقاقه يبين لنا خصائص الإنسان:

١) الحركة.

٢) النِّسيان.

٣) الأُنس.

فالخاصِّيَّة الأولى: النَّوسُ، وهو الحركة، يقال: ناس ينوس، أي: تحرَّك، ومنه حديث أم زرع: أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ[(١)]، أي: حرَّكهما بما ملأهما من ذهب ولؤلؤ، وأنت ترى قابلية الإنسان للحركة والتَّغيير، والإعمار والتَّدمير، وهذه القابليَّة تجعله عرضة لاتخاذ القرارات الصَّائبة والخاطئة، فيقوم الوسواس الخَنَّاس بدوره في التَّوجيه الخاطئ الأرعن للإنسان؛ ليتخذ القرارات المدمِّرة لحياته وحياة البشريَّة إلا أن يلجأ إلى ربِّه ﷻ، فيستعيذ منه من شرِّ الوسوسة المدمِّرة.

والخاصِّيَّة الثانية: **النسيان، فأصل كلمة (ناس)** من نَسِيَ، قُلِب فقدمت الياء، فصار نَيَس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفًا، ثم دخلت الألف واللام، فقيل: الناس، ولذا قال ابن عباس ﷺ: «نسي آدم عليه السلام عهد الله ﷻ فسمي إنسانًا»[(٢)]، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، وقال ﷺ: «ونسي آدم، فنسيت ذُرِّيَّتُهُ»[(٣)]، فالهمزة زائدة، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البخاري (٥١٨٩).

(٢) ينظر: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (١/ ٩٧).

(٣) الترمذي (٣٠٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وحسَّنه الألباني، والوادعي. ينظر: مشكاة المصابيح (١١٨)، والجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٤٧٠).

لا تنسينَّ تلك العهودَ فإنَّما ... سُمِّيْتَ إنسانًا لأنَّك ناسي[1]

وقال أبو الفتح البُسْتيُّ رحمه الله:

يا أكثرَ النَّاسِ إحسانًا إلى النَّاسِ ... وأكثرَ النَّاسِ إفضالًا على النَّاسِ

نَسِيتَ عَهْدَكَ، والنِّسيانُ مُغْتَفرٌ ... فاغفر فأولُّ ناسٍ أولُ النَّاسِ[2]

الخاصِّيَّة الثَّالثة: الأُنس: فالإنسان لا يستغني عن أُنْسِه بجنسه إما بالعدل والإحسان، وإما بالجور والطُّغيان، لكنه لا يستطيع العيش بمفرده، فقد قيل بأنه سمِّي إنسانًا؛ لأنسه بغيره، وأوَّل ذلك أنسه بزوجه: الرَّجل بالمرأة والمرأة بالرَّجل، مأخوذ من الأُنس ضدُّ الوحشة، ولذا فهو مَدَنِيٌّ بطَبْعه[3]، فالهمزة في كلمة (أناس) أصليَّة من أنس، أو من آنس أي أبصر، كما قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، وقال الشَّاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ... ولا القلبُ إلا أنه يَتَقَلَّبُ[4]

ويدخل في هذا الأنس؛ الأنس بربه ﷻ، وهذا يشير إلى الفطرة التي في صدره، والتي مهما راكم عليها أوساخ الإنكار يرجع إليها يومًا من الدهر، ومهما ابتعد عن جوهره المكنون المعجون بالإيمان فلا بد أن يعود راغبًا مقبلًا.

ونظَم محمد المثيل -غفر الله له- قوله:

وواحد النَّاس فقل: إنسانُ ... وفيه عن مفرده نقصانُ

---

(١) البيت لأبي تمام الطائي، في قصيدة يمدح أحمد بن المعتصم. ديوان أبي تمام (ص: ١٧٣).

(٢) ينظر: روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار (ص: ٣٩٨).

(٣) ينسب هذا القول إلى كثيرين منهم: ابن العربي، وابن تيمية، والرازي، وابن خلدون وغيرهم ولكنه اشتهر عن ابن خلدون، ربما لتخصصه في علوم الاجتماع. انظر مقدمة ابن خلدون (٢: ٣٤١).

(٤) البيت منسوب إلى الهذلي. ينظر: الإبانة في اللغة العربية للصحاري (١/ ٢٠٦).

تصـــغـيـره: (نـويـسٌ) ثـمَّ هـمـزُهْ إلـى (أُنَـاســيٍّ) و(إِنـسٍ) فـاعـزُهْ
مـعـنـاه: نـوسٌ أي كـثـيـر الـحـركَـةْ والأُنسُ والنِّســيانُ فاحفظ مسـلكَهْ

هذه الكلمة الحبيبة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ تحوطك برياحينها من الآلام والأدناس، فهل كان نزولها مؤثِّرًا عَلَى أبي طالب حتى ذكروا أنه قال في بعض قصائده:

أعوذ بِرَبِّ النَّاسِ من كلِّ طاعنٍ عـلـيـنـا بسـوءٍ أَو مُـلِـحٍّ بـبـاطـلِ
وَمن كـاشـحٍ يسْـعَى لنـا بمَعِيبـةٍ وَمن مُلْحِقٍ فِي الدِّين مَا لم نحاولِ [1]

ثم إنَّ الشَّيطان يعرِفُ خصائصَ أعدائه من بني آدمَ جيدًا، ويتَّخذُ منها مداخلَ وسوستهِ إليهم، وقد بيَّن الرسول ﷺ في حديثه كيف جعل إبليس يطوف بأبيهم آدم عليه السلام لمَّا صوَّره الله تعالى، فلما رآه أجوفَ عرف أنه خلقٌ لا يتمالك[2]، وقد حذَّرنا الله تعالى من نقاط الضَّعف التي يترصَّد للناس بها، ومنها قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (٢/ ٦١).

(٢) مسلم (٦٧٤٢).

الشَّيطان يعرِفُ خصائصَ أعدائه من بني آدمَ جيِّدًا، ويتَّخذُ منها مداخلَ وسوستهِ إليهم، وقد بيَّن الرسول ﷺ كيف جعل إبليس يطوف بأبيهم آدم عليه السلام لما صوَّره الله تعالى، فلما رآه أجوفَ عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك.

الصِّفة الثانية: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾:

وهنا قد تسأل: ما الذي تتميز به كلمة ﴿مَلِك﴾ عن كلمة ﴿ربِّ﴾؟ وما الذي أضافته للمتعوِّذ الذي يطلب الحماية؟

الجواب: مَلِك من المُلْك [1]، وهذا يعني وجود الحكم الفاصل القائم على قوة واقتدار، ومنه قالَ عَبدُ اللَّه بنُ الزِّبَعْرَى:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أَنَا بُورُ

إذْ أُبَارِي الشَّيطانَ فِي سُنَنِ الْغَيِّ ... وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

آمَنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ لِرَبِّي ... ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ [2]

ويعرِّف الرَّاغب رحمه الله المَلِك فيقول: «هو المتصرِّف بالأمر والنَّهي في الجمهور، وذلك يختصُّ بسياسة النَّاطقين، ولهذا يقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الأشياء» [3].

والملك-مثلثة الميم-: احتواء الشَّيء، أو القدرة على الاستبداد به، بأن ينفرد فيكون له لا لغيره تبعية الشَّيء والتَّصرُّف فيه.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٣٥١)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/ ٣٨٤)، تاج العروس (٢٧/ ٣٤٦).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٧٧٤).

والمُلك- بالضَّم- هو القهر والتَّسلُّط على من تتأتَّى منه الطَّاعة، ويكون ذلك باستحقاق وبغير استحقاق، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

والمِلك -أي بالكسر-: هو القهر على من تتأتَّى منه الطاعة ومن لا تتأتَّى منه كالأنهار والدُّور، والبهائم، والأصل أن يكون ذلك باستحقاق[1]: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣]، ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، أي: ممَّا اختزنتم، وصار في قبضتكم، وعُظْم ذلك ما مَلكه الرجل في بيته وتحت غَلَقِهِ[2].

فالله الملك الحقُّ الذي يتحكَّم بالنَّاس، وله فيهم الحكم الفاصل، ويدبِّر أحوالهم، إليه مفزعهم في الشَّدائد والنَّوائب، فعندما تلجأ إليه، فتقول: يا ملك الناس، تستغيث بحكمه الفاصل، وقوله الذي لا تستعصي عليه النَّوازل، وملك النَّاس هو الذي يحكمهم، ويتحكَّم بهم بقدرته، وقوته، وقهره.

الملك الحقُّ الذي يتحكَّم بالنَّاس، وله فيهم الحكم الفاصل، ويدبِّر أحوالهم، إليه مفزعهم في الشَّدائد والنَّوائب، فعندما تلجأ إليه، فتقول: يا ملك الناس، تستغيث بحكمه الفاصل، وقوله الذي لا تستعصي عليه النَّوازل.

هنا ستقول: قد رأينا الملوك من الناس، فكيف نفرِّق بين ملك الله ﷻ وملك غيره؟

الجواب: يتَّصف ملك الله ﷻ بصفات لا يمكن أن تكون لغيره، ومنها:

---

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (١/ ٣٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٣١٥).

أولًا: ملك الله ﷻ ملكٌ شامل للظاهر والباطن، أما الملك من الناس فإنه إنما يتحكَّم بظاهر الناس، لكنه لا قدرة له على التَّحكُّم ببواطنهم، والله ﷻ ملك يملك ظواهرهم وبواطنهم.

ثانيًا: ملك الله ﷻ ملك شامل للحاضر والغائب، أما الإنسان فقد يملك أن يتحكَّم وَفْقَ ما يراه أو ينقل له، والله ﷻ يملك حاضر الإنسان وغيبته في زمنه، أو قبل زمنه، أو بعد زمنه.

ثالثًا: ملك الله ﷻ ملك شامل للكلِّ والجزء، فالإنسان قد يتحكَّم في المخلوق بمجموعه عندما يقدر على الضَّغط عليه ليستجيب له، لكنه لا يمكن أن يَحْكُم أجزاءه وأعضاءه، والله ﷻ يَحْكُم الأجزاء والأعضاء.

وربما تضع سؤالًا وضعه الإمام ابن فورك في تفسيره عن الفرق بين «مالك وملك» حين جازا في فاتحة الكتاب دون هذه السُّورَة، فلماذا؟

الجواب: «لأن صفة مَلِك تدلُّ على تدبير من يشعر بالتَّدبير، وليس كذلك مالك، لأنه يجوز مالك الثَّوب، ولا يجوز ملك الثَّوب، ويجوز ملك الرُّوم، ولا يجوز مالك الرُّوم، فَجَرَتْ في فاتحة الكتاب على معنى الملك في يوم الجزاء، ومالك الجزاء، وجرت في سورة النَّاس على ملك تدبير من يعقل التدبير، فكأن هذا أحسن وأولى»[1].

صفة ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ تضفي على القلب مزيدًا من اليقين والتَّوكُّل؛ لأنها تشعر المتعوِّذ باللجوء الصَّحيح إلى من يملك أمر الجميع ظاهرهم وباطنهم.

(١) تفسير ابن فورك (٣/ ٣٠٩).

الصِّفة الثالثة: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾:

إلهٌ كـ(فِعالٍ) بمعْنَى مَأْلُوهٍ أي مَعْبودٌ.

هنا لا بدَّ أن تسأل: ما الذي أضافته كلمة ﴿إله﴾ للمتعوِّذ في تعوُّذِهِ بالله ﷻ؟

الجواب: كلمة ﴿إِلَٰهِ﴾ ذكروا في معناها أقوالًا متعدِّدة؛ أبرزها أنها **من أَلَهَ فلان يَأْلُهُ إلاهَةً بالكسْرِ**، وأُلُوهَةً وأُلُوهِيَّةً بضمِّهما: عَبَدَ عِبادَةً، **وإلهٌ كـ(فِعالٍ) بمعْنَى مَأْلُوهٍ أي: مَعْبودٌ**، كقَوْلِنا: (إمامٌ) فِعَالٌ بمعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّه مُؤْتَمٌّ بِهِ، وقيل: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ وتنسك، قَالَ رُؤْبَةُ:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ ... سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي[1]

فمعنى ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾: أي معبودهم الحق الذي ينبغي أن يتجهوا إليه في العبادة دون سواه.

ومن هذا الاشتقاق جاء الاسم العَلَم أعرف المعارف: ﴿الله﴾، ونقل الزبيدي عن شيخه محمد بن الطيب الفاسي (ت١١٧٠هـ) رحمه الله أنهم اختلفوا في أصله على أَكْثَر مِن ثلاثِينَ قَوْلًا، وأَصَحُّها أَنَّه عَلَمٌ للذَّاتِ الوَاجِبِ الوُجُودِ، الـمُسْتَجْمِع لجميعِ صِفَاتِ الكَمالِ، غَيْرُ مُشْتَقٍّ، وقالَ ابنُ العَرَبِيِّ رحمه الله: «عَلَمٌ دالٌّ على الإلَهِ الحقِّ دَلالَة جامِعَةً لجمِيعِ الأسْماءِ الحُسْنَى الإلهيَّة الأَحَدِيَّة، جمعَ جَمِيعِ الحَقائِقِ الوُجُودِيَّة»[2].

وقال د/ محمد حسن جبل رحمه الله: «فالإله الحقُّ جل جلاله نور لا يحاط بِكُنْهِ حقيقته، بيده كلُّ شيء: العالم كلُّه ممَّا هو أدقُّ من الذَّرَّة إلى ما هو أعظم من كلِّ مجرَّة عِلمًا، وملكًا، وإيجادًا، وتصريفًا وإفناء، وأستغفر الله من قصور العبارة»[3].

---

(١) ديوان رؤبة العجاج (ص: ١٦٥).

(٢) ينظر: تاج العروس (٣٦/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٣) د. محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (٤/ ٢٠٠٧، ٢٠٠٨).

فإذا اتَّجه العبد إلى أن يعبد الله، وترقَّى في ذلك، فقد أَلِهَ كفَرِحَ يَأْلَهُ أَلَهًا: أي تَحَيَّرَ منزِّهًا ربَّه -جلَّ مجده- عن أن يعبده حقَّ عبادته، أو يستطيع أن يقدره حقَّ قدره، فما خطر من تعظيمه ببالك فالله أعظم من ذلك، وأَصْلُه وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهًا، وذلك أنَّ العبد إذا تفكَّر في صفاته تحيَّر فيها، لأنه لا يقدرها حقَّ قدرها، ويرشدنا النَّبيُّ ﷺ إلى أن نُعمِل عقولنا في التَّفكُّر في خلق الله ﷻ، لنصل إلى أننا لا نستطيع أن نقدر الله ﷻ حقَّ قدره مهما بلغ تعظيمنا له.. لا تتعجَّب حينها أن تسمع الملائكة تقول: «سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك»(١).

من أجل ذلك ولزيادة تعظيمنا لله ﷻ؛ روى ابن عبَّاس ﷺ قال: «تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في ذات الله ﷻ»(٢)، وقد قال ابن القَيِّم رحمه الله: الرَّبُّ تَعالى يَدْعُو عباده فِي القُرْآن إلى مَعْرفَتِهِ من طَرِيقين:

أحدهما: النَّظر فِي مفعولاته.

والثَّاني: التَّفكُّر فِي آياته وتدبُّرها؛ فَتلك آياته المشهودة وهَذِه آياته المسموعة المعقولة.

فالنَّوع الأوَّل كَقَوْلِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ...﴾ إلى آخرها [البقرة: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وهُوَ كثير فِي القُرْآن.

والثَّاني كَقَوْلِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقَوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقَوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وهُوَ كثير أيْضًا(٣).

---

(١) الحاكم ٨٧٣٩، وذكره الألباني في الصحيحة برقم ٩٤١.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة، وقال الذهبي في «العرش» ٢/ ١٣٤: «إسناده حسن»، وقال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٨٣): «سنده جيد»، وجعله الألباني حسنًا مرفوعًا بشواهده. الصحيحة (١٧٨٨).

(٣) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠).

فإن أنت سمعت المستعيذ، يتعوَّذ بالله ﷻ قائلًا: إله الناس، شعرت بالإضافة الضَّخمة التي تحبوك بها هذه الصِّفة ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّه الله ﷻ المعبود الذي استحقَّ العبادة، ووجبت له، وتحيَّرت العقول في صفاته؛ إذًا لا تقدر على الوصول إلى إدراك الكمالات التي تكون عليها صفاته، فهو الإله وحده، وسواه عبيد، ليس لهم من مرجع إلا هو، وهو إلههم الحقُّ ومعبودهم الذي لا إله سواه، تتحيَّر الأفهام في قدرته، ولطفه، وإغاثته، فكما أنه -وَحْدَه- ربُّ الناس الذي ربَّاهم على ما يصلحهم أجسادًا وأنفسًا، لا يشاركه في ربوبيته، ولا تربيته لهم أحد، فكذلك هو ملكهم الذي له الحكم الفصل لهم وعليهم؛ لا يشاركه في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم الذي يعبدونه متحيِّرين في عظمة قدرته، وجلال إغاثته، وسعة رحمته، سبحانه لَا تَرَاهُ فِي الدنيا الْعُيُونُ، وَلَا تُخَالِط سعة ملكه الظُّنُونُ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تُغَيِّرُهُ الْحَوَادِثُ، وَلَا يَخْشَى الدَّوَائِرَ، يَعْلَمُ مَثَاقِيلَ الْجِبَالِ، وَمَكَايِيلَ الْبِحَارِ، وَعَدَدَ قَطْرِ الْأَمْطَارِ، وَعَدَدَ وَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَعَدَدَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ النَّهَارُ، لَا تُوَارِي مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا، وَلَا بَحْرٌ مَا فِي قَعْرِهِ، وَلَا جَبَلٌ مَا فِي وَعْرِهِ[1].

وقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَارِفِينَ إِلَّا هَاتَانِ النِّعْمَتَانِ لِكَفَاهُمْ مِنْهُ مَتَى رَجَعُوا إِلَيْهِ وَجَدُوهُ وَمَتَى مَا شَاءُوا ذَكَرُوهُ»، وقِيلَ له: أَخْبِرْنِي عَنِ اللهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: إِلَهٌ وَاحِدٌ، قَالَ: كَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: مَلِكٌ قَادِرٌ؟ قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: بِالْمِرْصَادِ، قَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، قَالَ يَحْيَى: فَذَاكَ صِفَةُ الْمَخْلُوقِ، فَأَمَّا صِفَةُ الْخَالِقِ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ»[2].

---

(١) المعجم الأوسط (٩٤٤٨)، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد، أبي عبد الرحمن الأذرمي، وهو ثقة». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٥٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٦٠).

أشـــار القلبُ نحوك والضُّـــميرُ ... وســـرُّ السِّـــرِّ أنـت بـه خَـبِـيـرُ
وإني إنْ نَـطَـقْـتُ بـكـم أنـادي ... وفي وقـت السُّـكـوتِ لـكـم أُشِـيـرُ
أَيَـا مَـنْ لا يُضـــاف إلـيـه ثـانٍ ... أَتَـاك الـوَالِـهُ الصَّـــبُّ الـفَـقِـيـرُ
ولـي أمـلٌ تُـحَـقِّـقُـهُ ظُـنُـونِـي ... ولـي قـلـبٌ كـمـا تَـدْرِي يَـطِـيـرُ
وإن تَـمْـنُـنْ وتَـغْـفِـرْ يـا إلـهـي ... فـأنـتَ عـلـيـه يـا أَمَـلِـي قَـدِيـرُ

هنا تدرك ضعف نفسك، وترمي بأثقالك كلِّها أمام إلهك الذي تتعوَّذ به، وتدرك أن نفسك تَجُرُّك إلى أسوأ المخافات إن وَثِقتَ بها، فترجع إلى الله ﷻ متبرِّئًا من حولك وقوَّتك وتردِّد مبتهلًا مع أحمد سحنون رحمه الله:

لـي نَـفْـسٌ جَـرِيـئـةٌ تَـتَـحَـدَّى ... قُـدرةَ اللهِ بـارتـكـابِ الـخَـطَـايـا
لا تبـالي سَـــخَطَ الإلـهِ ولا ســوءَ ... الـمَـصِـيـرِ ولا جُـيُـوشَ الـرَّزايـا!
تَـتَـحـلَّـى لـلـنَّـاس زُورًا وبُـهـتَـانًـا ... ثـيـابَ الـتُّـقـى وطـيـبَ الـسَّـــجـايـا!
وهي تخفي وراء ظاهرها شَـرًّا ... كـأفـعـى فـتَّـاكـة بـالـبـرايـا!
بهواها تـنـقـادُ لا بهدى الـعَـقْـلِ ... وإن جَـرَّهـا الـهَـوَى لـلـمَـنَـايـا
اتَّـخَـذَتْـهُ إلـهًـا وهـي لا تَـجْـهَـلُ ... كـم أَوْبَـقَ الـهَـوَى مِـنْ ضَـحَـايـا
تَـتَـعَـالـى بـلا عُـلُـوٍّ وتَـنْـفِـي ... مـا تَـرَاه لـغَـيـرِهـا مِـنْ مَـزَايـا!
وتـعـيـبُ الـبَـرِيءَ ظُـلْـمًـا وتَـنْـسَـى ... أنَّـهـا قـد حَـوَتْ جـمـيـعَ الـدَّنَـايـا!
وَيْـحَ نَـفْـسِـي! تَـقُـودُنِـي لـهَـلَاكِـي ... وهـي نَـفْـسِـي الَّـتـي بـهـا مُـحَـيَّـايـا!

كُنْ إلهي عَوْنِي عليها فنَفْسِي ... دون كلِّ الأنَام أَعْدَى عَدَايا[1]

إذًا فصِفة الإله نبَّهت المستعيذ لأمرين: ضعف الإنسان وحاجته لمعبوده العلِّيِّ ﷻ.

وقد تتساءل: لماذا الإكثار من ذكر صفات الله ﷻ الذي نتعوَّذ به؟ أما كان يكفي أن نقول: قل أعوذ بالله؟

الجواب -ألهمك الله- يشرق لك من خلال هذه البصيرة، فدُونكها:

بصيرة [٥]: الإكثار من صفات الله ﷻ عند الاستعاذة به تصوِّر لنا عظمة المستعاذ به، وشِدَّة خطر المستعاذ منه، وهذا تبصره في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ فتكثر من الثَّناء على ربِّ الأرض والسَّماء عند اشتداد الخطر، والخطر الهائل الكبير الذي يمثِّله شَرُّ الوسواس الخنَّاس اقتضى أن تكون أكثر استغاثة بالله ﷻ، ومدحًا له، وتملُّقًا لصفاته، وهنا تعلم جمال الاستعاذة، وقوَّتها عندما يصف المستعيذ ربَّه ﷻ بهذه الصِّفات الثَّلاث: الرُّبوبيَّة، والملكيَّة، والإلهيَّة.

فهذه الصِّفات الإلهيَّة الثلاث تناسب مناسبة كبيرة الاستعاذة من أخطر آفة تهدِّد الإنسانيَّة: الوسوسة، لأنها تؤثِّر على كلِّ قرار يصدر من الإنسان، صغر هذا القرار أم كبر، مستهدفةً دينَ المرءِ وبوابةَ سعادتِه.

وهذه الصِّفات الثَّلاث التي أضيفت للناس تشعرك بجمال الثَّناء لربِّ الأرض والسماء، ويحدِّثنا أبو ذرٍّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلِّمنا أنك كلما تملَّقت الله، وأثنيت عليه أحبَّك حيث قال:

(١) ديوان الشيخ أحمد سحنون (١/ ١٣٨).

«ثلاثةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ –وذكر منهم– قَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ، نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ –يعني أحدهم– يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي»[1].

وينقل أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ رحمه الله حديثًا في وصف عظمة الله وكرمه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ لَهُ: مِمَّ تَبْكِي؟ فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، كَيْفَ لَا أَبْكِي وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ، وَهَدَأَتِ الْعُيونُ، وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِخَلِيلِهِ، اسْتَنَارَتْ قُلُوبُ العَارِفِينَ وَتَلَذَّذَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ، وَارْتَفَعَتْ هِمَمُهُمْ إِلَى ذِي العَرْشِ، وَافْتَرَشَ أَهْلُ الْمَحَبَّةِ أَقْدَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ مَلِيكِهِمْ فِي مُنَاجَاتِهِ، وَرَدَّدُوا كَلَامَهُ بِأَصْوَاتٍ مَحْزُونَةٍ، جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، وَتَقَطَّرَتْ فِي مَحَارِيبِهِمْ؛ خَوْفًا وَاشْتِيَاقًا، فلعلَّ الكريم جل جلاله أَشْرَفَ عَلَيْهِم فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَأَمَدَّهُمْ مَحَبَّةً وَسُرُورًا، كأنه يقول لهم: أَوَمَا عَلِمْتُمْ أَنِّي كَرِيمٌ فَكَيْفَ لَا أَرْضَى؟ أَيُشْبِهُ كَرَمِي أَنْ أَرُدَّ قَوْمًا قَصَدُونِي؟ أَمْ كَيْفَ أُذِلُّ قَوْمًا تَعَزَّزُوا بِي؟ أَمْ كَيْفَ أَحْجُبُ غَدًا أَقْوَامًا آثَرُونِي عَلَى جَمِيعِ خَلْقِي وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَنَعَّمُوا بِذِكْرِي؟ أَمْ كَيْفَ يُشْبِهُ رَحْمَتِي؟ أَوْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ أُبَيِّتَ قَوْمًا تَمَلَّقُوا لِي وُقُوفًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَعِنْدَ الْبَيَاتِ أَخْزُوهُمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَجْمُلُ بِي أَنْ أُعَذِّبَ قَوْمًا إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ تَمَلَّقُونِي، وَكَيْفَمَا كَانُوا انْقَطَعُوا إِلَيَّ وَاسْتَرَاحُوا إِلَى ذِكْرِي، وَخَافُوا عَذَابِي، وَطَلَبُوا الْقُرْبَةَ عِنْدِي[2].

(١) أحمد (٢١٣٥٥)، وصحَّحه الأرناؤوط، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩٢٢).

(٢) أصله في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ١٦)، وقد تصرَّفت في الوصف؛ لأن مرادي الوصف لا القصة.

هذه الصِّفات الإلهيَّة الثَّلاث: الرُّبوبيَّة، والملكيَّة، والإلهيَّة تناسب مناسبة كبيرة الاستعاذة من أخطر آفة تهدِّد الإنسانيَّة: الوسوسة، لأنها تؤثِّر على كلِّ قرار يصدر من الإنسان، صغر هذا القرار أم كبر، مستهدفةً دينَ المرءِ وبوابةَ سعادتهِ.

وقد أنشدنا محمد المثيل -غفر الله له-:

لكَ منكَ فيكَ عليكَ يا معبودي ... شِعْري شُعُوري مَأْملي مَقْصُودِي

الحقُّ أنتَ وما سواكَ فباطلٌ ... والحيُّ أنت وكلُّنا لِلدُّودِ

اِفتح لعبدك من خَزَائنك التي ... ملأتْ نواحي مُلْكِكَ المَمْدُودِ

لا علمَ يُحصيها ولا حصرٌ لها ... آفاقُ آفاقٍ بغيرِ حُدُودِ

هَيِّئْ ليَ الأسبابَ قَوِّ عَزِيمَتِي ... لصَلاح شَاني وَاجْتِنَا مَنْشُودِي

امِنَحْنِيَ التَّقْوَى وقُوَّةَ مُؤمنٍ ... لا يَنْحَنِي لمصاعبٍ وسُدُودِ

لَيِّنْ لي القَاسِي وسَهِّلْ صَعْبَهُ ... هَبْ لي أَيَا وهَّابُ يا ذا الجُودِ

النُّورَ في قَلْبِي وفي عَقْلِي وفي ... وَجْهِي وسَمْعِي، والشِّفا بِوُجُودِي

لولاك لَمْ أَذُقِ السَّعادة والهَنَا ... لولاك لَمْ أَجْنِ ثمارَ جُهُودي

هذي حُرُوفي تَسْتَجِيرُ وتَرْتَجِي ... بك منك في إِخْبَاتةٍ وسُجُودِ

بصيرة [٦]: من أسرار الارتباط بين هذه الأوصاف الثَّلاثة: إثبات الوحدانيَّة من خلال تفصيل الصِّفات المقتضية لذلك.

سرُّ التَّرتيب وجمال الانتظام في

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾

١. طريقة ليبرِّهن على المطلوب فلا يستحقُّ التَّألُّه إلا من ربَّى عباده بالنِّعم وملكهم بالقهر والطَّوع، وفيهم حَكَم.

٢. ليعرِّف بتفرُّد ربوبيته من خلال اقترانها مع الملك والإله، فلا يوصف بمثل هذه الصِّفات أحد من المربوبين.

٣. ليجمع في ذكر الرَّبِّ والملك بين معاني التَّربية والرَّحمة مع كمال التَّصرف ونفوذ القدرة.

٤. يشير التَّرتيب إلى الانتقال بين درجات الإقرار ابتداءً بربوبيَّة الله عز وجل، يليها الإقرار بأنه ملكهم، ثم إنْ هم أقرُّوه مالكهم ظهر لهم نور ألوهيته سبحانه.

٥. ذكَر الرَّبَّ قبل الملك؛ لتكون الرحمة التي تقتضيها الرُّبوبيَّة غالبة على العدل الذي يقتضيه الملك.

قد تتساءل: ما سرُّ الترتيب بين هذه الصِّفات: لماذا قدَّم الرُّبوبيَّة، ووسَّط الملك، وأخَّر الألوهيَّة؟

الجواب: يمكن أن نلخِّص ذلك في الآتي:

١) طريقة ليبرهن على المطلوب فلا يستحقُّ التألُّه إلا من ربَّى عباده بالنِّعم، ومَلَكَهُم بالقهر والطَّوع، وفيهم حَكَمَ.

٢) ليُعَرِّف بتفرُّد ربوبيته من خلال اقترانها مع الملك والإله، فلا يوصف بمثل هذه الصِّفات أحد من المربوبين.

٣) ليجمع في ذكر الرَّبِّ والملك بين معاني التَّربية والرَّحمة مع كمال التَّصرُّف ونفوذ القدرة.

٤) يشير التَّرتيب إلى الانتقال بين درجات الإقرار ابتداءً بربوبية الله ﷻ، إذ النَّاس يشهدون آثارها، يليها الإقرار بأنه ملكهم، ثم إن هم أقرُّوه مالكهم ظهر لهم نور ألوهيته سبحانه.

٥) ذكر الرَّبَّ قبل الملك؛ لتكون الرَّحمة التي تقتضيها الرُّبوبيَّة غالبة على العدل الذي يقتضيه الملك.

أمَّا أولًا: طريقة البرهنة على المطلوب، وإقامة الدَّليل والحجَّة: رب، ملك، إذن: إله.

فقدَّم الرُّبوبيَّة؛ لعمومها وشمولها لكلِّ مربوب، ولظهور اللُّطف والحنان فيها، فالعبد يعرف ربه ﷻ بما يربِّيه به، ويغذِّيه من النِّعم العميمة، والهبات الجسيمة، فكلُّ جزء في العبد ظاهر أو خفيٍّ فهو من تربية الله ﷻ لعبده، ويغلب على التَّربية الرَّحمة.

ووسَّط صفة الملك بين الرُّبوبيَّة والإلهيَّة؛ لأن الملك هو الحاكم الحَكَم المتصرف بقوله وأمره، المطاع إذا أمر، فهو ملك الناس؛ لأنه خلقهم، وهو ملكهم الحق؛ لأنه يتصرف في كلِّ خلية فيهم، وكلِّ ذرة تكِّون أجسادهم، ولا يملك غيرُه فيهم من قطمير، وما له منهم من ظهير.

وثلَّث بصفة الإلهيَّة؛ لأنه بعد أن لجأوا إليه لأنَّه ربَّاهم، ولجأوا إليه لأنَّه ملكهم الذي يحكم فيهم، تقرَّبوا إليه بالإذعان بأنه الإله المعبود، فقد علموا أنه قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»[1].

فهو الرَّبُّ الملك الإله خلقهم وربَّاهم بالرُّبوبيَّة وقهرهم بالملك واستعبدهم بالإلهيَّة، فلا مفزع لنا في سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إلى استغفاره ونجواه، إنه معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى روحك وحياتك.

مـلـكٌ تـديـنُ لـهُ الـمـلـوكُ ويَـلْـتَـجي ... يـومَ الـقـيـامـةِ فَـقْـرُهـمْ بـغـنـاهُ

هـوَ أوَّلٌ هـوَ آخـرٌ هـوَ ظـاهـرٌ ... هـوَ بـاطـنٌ لـيـسَ الـعـيـونُ تـراهُ

حَـجَـبـتُـهُ أسـرارُ الـجـلالِ فـدونـهُ ... تـقـفُ الـظُّـنـونُ وتـخـرسُ الأفـواهُ

صَـمَـدٌ بـلا كُـفْءٍ ولا كَـيْـفـيَّـةٍ ... أبـدًا فـمـا الـنُّـظَـراءُ والأشـبـاهُ

شـهـدتْ غرائبُ صـنعهِ بوجودهِ ... لـولاهُ مـا شَـهِـدتْ بـهِ لـولاهُ

وإلـيـهِ أذعـنـتِ الـعُـقُـولُ فـآمـنـتْ ... بـالـغـيـبِ تُـؤْثِـرُ حـبَّـهـا إيَّـاه[2]

وهنا يطيب لنا أن نترنم بحداء الحبيب الدكتور عامر الخميسي، وهو يقول في قصيدته "واقف بالبابِ" :

يـا رَبِّ إنِّـي وَاقِـفٌ بِـالـبَـابِ ... في حَسْـرَةٍ وتَـقَـطُّـعٍ مِـمَّـا بِـي

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) ديوان عبد الرحيم البرعي (ص: ١٦).

هَا قَدْ أَتَيْتُ إلى رِحَابِك زَائِرًا ... مُتَذَلِّلًا مُتَلَفِّعًا بِثِيَابِي
ذَنْبِي يُلَاحِقُنِي ومَا لِي حِيْلَةٌ ... إلَّا الرَّجَا يَمْحُو نُدُوبَ عَذَابِي
فِي الشَّوْقِ رَبِّي لَسْتُ مُوسَى إِذْ أَتَى ... فِي الوَعْدِ يَنْفَحُ مِنْ شَذَى الأَطْيَابِ
فِي الفَقْدِ ما أَشْبَهتُ يَعقُوبَ الَّذِي ... قَدْ عَاشَ يَرْجُو الوَصْلَ بَعْدَ غِيابِ
فِي الصِّدْقِ ما أَشْبَهتُ أَيُّوبَ الَّذِي ... فِي ضُرِّهِ يَشْكُو مِنَ الأَوْصَابِ
حَسْبِي بِأَنَّكَ خَالِقِي مُتَلَطِّفٌ ... بِالفَضْلِ تُغْدِقُ دُونَ أَيِّ حِسَابِ

قدَّم الربوبية على الألوهية؛ لعمومها وشمولها لكلِّ مربوب، ولظهور اللُّطف والحنان فيها، فالعبد يعرف ربه ﷻ بما يربيه به، فكلُّ جزء في العبد ظاهر أو خفيٍّ فهو من تربية الله ﷻ لعبده، ويغلب على التَّربية الرَّحمة.

ثانيًا: عرَّف الله جلَّ مجده نَفْسَه بأنه: ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وأردفه بـ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن كلمة (رب) قد يشترك فيها البشر، فجمع بين الرُّبوبيَّة والملكية، ثم زاده بيانًا بأنه إله الناس؛ لأنه قد يقال لغيره.

وعلمَّك أن تستعيذ بالـمُرَبِّي ثم ارتقى بك لترتقي بنفسك فتجمع طلب المعاذ من الرَّبِّ الذي هو ملك للناس، فالرَّبُّ قد يكون ملكًا، وربما لا يكون ملكًا، كما قَالَ -تَعَالَى مجده- عن قوم جعلوا بعض البشر أربابًا: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

والمستعاذ به المستغاث هنا ليس ربًّا فقط، بل ملك متصرِّف، وحاكم يدافع عمن استعاذ به ولجأ إليه، وقال: ملك الناس فوصفه بالملكيَّة لا بالمالكيَّة؛ لأن الرُّبوبيَّة تقتضي المالكيَّة

غالبًا، فأغنت عنها لتضمنها معناها، ثم يرتقي المستعيذ بربه ﷻ في وصفه وتضرعه؛ ليصف ربَّه ﷻ بالوصف الذي لا يمكن لأحد أن يشاركه فيه، وهو أنه ﴿إله الناس﴾، ولما كان الملك ربما لا يكون إلهًا، وكانت الإلهيَّة خاصة لا تقبل شركًا أصلًا بخلاف غيرها، أنهى الأمر إليها وجعلت غاية البيان فقال: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[1].

ثالثًا: يمكنك أن تقول: بأنَّ العبد عرف ربَّه ﷻ، والرُّبوبيَّة تقتضي التَّربية وتدبير الحياة وَفْقَ الأصلح، فيلجأ المُرَبَّى إلى المربِّي، ويستغيث به، ولكن المربِّي المُنَادى هنا هو: ربُّ الناس، وليس مربِّيًا لفرد أو لفئة بل للناس أجمعين، ولما كان الرَّبُّ والمَلِكُ متقاربين في المفهوم، وكان الرَّبُّ أقرب في المفهوم إلى اللُّطف والتَّربية والرَّحمة، وكان المَلِك أقرب للقهر وإظهار العدل، وكان الرَّبُّ قد لا يكون ملكًا فلا يكون كامل التَّصرُّف، والملك قد لا يكون مربِّيًا، اقتضى المقام البليغ تقديم الأوَّل وإتباعه الثاني، فقال تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾؛ إشارة إلى أنَّ له كمال التَّصرُّف ونفوذ القدرة وتمام السُّلطان، وإليه المفزع وهو المستعان، والمستغاث والملجأ والمعاد.

> **إذا تأمَّل العبد في جلال الله ﷻ وإمداده بهذه النِّعم مع استغنائه عن معونة أحد من الخلق شعر بأنَّ الله ﷻ هو الملك الحقُّ، فإذا تفكَّر الإنسان أكثر في آلاء الله ﷻ عَرَفَ أَنَّ الله ﷻ فِي الْجَلَالَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ فَوْقَ وَصْفِ الْوَاصِفِينَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَلِهَتِ الْعُقُولُ فِي عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَحِينَئِذٍ يَعْرِفُهُ إِلَهًا** (تفسير الرازي٣٢/ ٣٧٧).

(١) تفسير الزمخشري (٤/ ٨٢٣)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٢٦).

رابعًا: الرُّبوبيَّة ظاهرة آثارها، كما قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

كلُّ هذه الآثار التي لمسوها وأقرُّوا بموجبها بأن الذي أوجدها هو ربُّهم ﷻ، وقد اتَّفق على ربوبيته من يعترف بوجوده، فينتقلون إلى الدَّرجة الثَّانية وهي أن ربَّهم ﷻ هو ملكهم، فهو المتصرِّف في تلك العوالم الحاكم في شأن الدُّنيا والآخرة جميعًا، فإن أقرُّوا بذلك ظهر لهم نور الألوهيَّة، فهي المرتبة النِّهائيَّة، ولأنها التي أشرك فيها المشركون أخَّرها، وذكَّرهم بأنه إله الناس الذي لا ينبغي أن تكون له أنداد في حياة الإنسان، فإن خاطب الإنسان ربَّه ﷻ بهذا الموجب استجاب الله ﷻ دعاءه، وحقَّق رجاءه، كما حقَّق للمشركين، الذين يتخلَّون عن شركهم مخلصين لله الدِّين، وقال عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

سبحانَ منْ عَنَتِ الوُجوهُ لوجهِهِ ... ولهُ سُجودٌ أوجهٌ وجِبَاهُ

طوعًا وكرهًا خاضعينَ لعزِّهِ ... فلهُ عليها الطَّوعُ والإكراهُ

سلْ عنهُ ذرَّاتِ الوُجودِ فإنَّها ... تَدعوهُ معبودًا لها ربَّاهُ

ما كانَ يُعبدُ منْ إلهٍ غيرهُ ... والكلُّ تحتَ القَهْرِ وهوَ إلهُ [1]

(١) ديوان عبد الرحيم البرعي (ص: ١٦).

الشَّيطان يستهدف درجات الإقرار الثَّلاثة بحقِّ الله ﷻ:

والشَّيطان في خطوات إيقاعه الإنسان في المعصية، إنما يستهدف درجات الإقرارات الثَّلاثة بحقِّ الله ﷻ، فالذُّنوب المقترفة تنطق بإخلال العبد **بألوهيَّة الله** ﷻ، ويلزم المعصيةَ نزاعُ الله ﷻ في أحكامه وحقيقة ذلك جحد **تشريعات المَلك**، حتى يَصِلَ الشَّيطان بالإنسان إلى انتكاس فطرته، فلا يقرُّ بأبسط ما يشهده من دلالات **ربوبية الله** ﷻ، وهي الدَّرجة التي يقرُّها المؤمن والكافر غالبًا.

> **يصل الشَّيطانُ بالإنسان إلى انتكاس فطرته، فلا يقرُّ بأبسط ما يشهده من دلالات ربوبية الله ﷻ، وهي الدَّرجة التي يقرُّها المؤمن والكافر غالبًا.**

خامسًا: يغلب على الملك العدل، فبدأ بالرَّحمة، وضبطها بالعدل، وابتدأ بالتَّربية التي تقتضي الرَّحمة لتكون الغالبة على العدل الذي يقتضيه الملك.

وقد تسأل: لماذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]، ولم يقل: قل أعوذ بربِّ الناس، وملكهم، وإلههم؟ لماذا أظهر في موضع الإضمار؟

الجواب: كرَّر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمر موقعه؛ لزيادة التَّلذُّذ، ومبالغة في الشُّعور بعذوبة هذه المناجاة:

فلم يقل: قل أعوذ بربِّ الناس وَمَلِكِهِم وإلههم، بل أعاد المضمر مظهرًا، لتجد في ذلك الإظهار روحًا، وعبيرًا، وعِبَرًا.

هذا سبب، ودونك سببًا آخر: إشعار الناس بأن توجيهات الله ﷻ لهم.. لحمايتهم، وحفظهم، وسعادتهم، لا لتقييدهم، أو العبث بحياتهم.

فالمستغيث به يعبده، ويُوَحِّدُه، ويتلذَّذ بالانطراح بين يديه، فقد بلغت الاستغاثة هنا مبلغها.. اللَّهمَّ بلِّغنا بها كلَّ آمالنا يا أرحم الرَّاحمين، وعندها يقول:

بك أستجيرُ ومن يُجِيرُ سِواكا ... فأَجِرْ ضعيفًا يحتمي بحِمَاكا

إني ضعيفٌ أستعينُ على قُوَى ... ذَنْبِي ومَعْصِيتي ببعضِ قُواكا

أذنبتُ يا ربِّي وآذتني ... ذنوبٌ مالها من غافرٍ إلاكا

أنا كنتُ يا ربِّي أسيرَ غشاوةٍ ... رانت على قلبي فَضَلَّ سناكا

واليوم يا ربِّي مسحتُ غشاوتي ... وبدأتُ بالقلب البصير أراكا

يا ربِّ عدتُ إلى رحابك ... تائبًا مستسلمًا مستمسكًا بعُرَاكا

مالي وما للأغنياء وأنت يا ... ربِّ الغنيُّ ولا يُحَدُّ غناكا

ومالي وما للأقوياء وأنت يا ... ربِّي وربَّ النَّاس ما أقواكا

مالي وأبوابُ الملوكِ وأنت من ... خلق الملوكَ وقَسَّمَ الأملاكا

إني أويت لكلِّ مأوى في الحياةِ ... فما رأيت أعزَّ من مأواكا

وتلمَّستْ نفسي السَّبيل إلى النَّجاةِ ... فلم تجد منجى سوى منجاكا

وبحثتُ عن سرِّ السَّعادة جاهدًا ... فوجدت هذا السِّرَّ في تقواكا

فليرض عني الناسُ أو فليسخطوا ... أنا لم أَعُدْ أسعى لغير رضاكا[1]

بصيرة [٧]: هذه الإضافات الثلاث ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ تلخِّص جميع قواعد الإيمان، وتتضمَّن معاني أسماء الله الحِسان.

(١) الأبيات للشاعر المصري إبراهيم بديوي (ت ١٩٨٣م).

يشرح ابن القَيِّم رحمه الله هذه الفكرة: أما تضمُّنها لمعاني أسمائه الحسنى فإن كلمة ﴿الرَّبِّ﴾ تتضمَّن كلَّ المعاني الكاملة للربوبية، فهو القادر الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضارُّ، النافع، المُقَدِّم، المُؤَخِّر، الذي يُضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء- إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى.

وأما المَلِك: فهو الآمر الناهي، المُعِزُّ المُذِلُّ، الذي يُصَرِّف أمورَ عباده كما يحبُّ، ويقلِّبهم كما يشاء، وله من معنى المَلِك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى، كالعزيز، الجبَّار المتكبِّر، الحكم العدل، الخافض الرَّافع، المعزّ المذلّ، العظيم الجليل الكبير، الحسيب المجيد، الوالي المتعالي، مالك المُلْك، المقسط الجامع- إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى المَلِك.

وأما الإله: فهو الجامع لجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى.

فقد تضمَّنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يعاذ ويحفظ، ويمنع من الوسواس الخَنَّاس ولا يُسلَّط عليه[1].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٩).

قال ابن القيِّم رحمه الله: تضمَّنَتْ هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يعاذ ويحفظ، ويمنع من الوسواس الخَنَّاس ولا يسلط عليه.

بصيرة [٨]: أضاف الله عز وجل كلمة ﴿ربِّ﴾ إليك وإلى سائر الناس؛ ليبصِّرك بمدى رعايته للإنسانيَّة، وإرادته الخير لهم.

هنا لا بد أن يثور عندك سؤال: أليس الله ربّ العالمين؟ فما سبب هذه الإضافة إلى الناس في قوله: ﴿رب الناس﴾؟

الجواب: الله ربُّ العالمين كما في أول الفاتحة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وتكرَّر وصفه جلَّ مجده بأنه: ﴿ربُّ العالمين﴾ في (٤٢) موضعًا من القرآن المجيد، وهو تعالى مجده ربُّ كلِّ شيء، ووصِف بذلك في القرآن المجيد في قوله: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، **ولكن الإضافة إلى العامِّ لا تعني عدم الإضافة إلى بعض أفراده، فقد جاءت هذه الإضافة في مواضع متعدِّدة منها:**

أضيف وصف ﴿ربّ﴾ إلى السَّموات والأرض كقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦].

وإلى المشرق والمغرب في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

وإلى البيت: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش: ٣].

وإلى البلد الحرام: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ [النمل: ٩١].

وإلى العرش: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وإلى الرَّسول: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ٣] إلى غير ذلك في مائتي وأربع آيات.

ولماذا تأتي الإضافة إلى بعض أفراد العامِّ؟

الجواب: كلُّ هذه الإضافات إلى بعض أفراد العامِّ تصوِّر لك خصوصية محدَّدةً لمن أضيفت له، والسِّياق يفصِّل لك هذه الخصوصية.

فإضافة الرُّبوبيَّة إلى الناس لإظهار أمور:

١) مدى العناية الإلهيَّة بحقوق البشريَّة.

٢) كون الناس من أعظم الآيات التي تدلُّهم على ربِّهم العليم القدير البديع.

٣) تشريفًا لهم وتفضيلًا على غيرهم؛ لأنهم أهل العقل والتمييز[(١)].

فأضاف الله تعالى شأنه كلمة ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿النَّاس﴾؛ ليُشعرهم بمزيد رعاية لهم وحماية لمجموعهم، وكذلك أضاف كلمة ﴿مَلِكِ﴾ إلى ﴿النَّاس﴾؛ لينبئهم بأنَّه مَلِكُهم الذَّائدُ عن حِماهم، القائم على أمور أَمْنِهِم، وسكينتهم، وسعادتهم، وأضاف ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿النَّاسِ﴾؛ ليؤكِّد لهم أنَّهم عندما يلجؤون إليه ليعبدوه ويوحِّدوه في العبادة سيجدونه يحميهم، ويعيذهم مما استعاذوا به منه.

(١) محمد بن أبي بكر الرازي، أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، مكتبة فيّاض المنصورة-مصر، ط:١، ١٤٣٤هـ، (ص: ٤٤٣).

أضاف الله ﷻ ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ ليؤكد لهم أنهم عندما يلجؤون إليه ليعبدوه ويوحدوه في العبادة سيجدونه يحميهم، ويعيذهم مما استعاذوا به منه.

أتريد أن تشعر بالنَّسيم العذب الذي ينتابك عندما ترى جمال هذه الإضافات الثلاث: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]؟

الجواب: تعال لترى ظلًّا ممدودًا لهذه الإضافة عندما تجد كلمة ﴿ربّ﴾ للرَّسول ﷺ في جميع أطواره منذ:

البَدْأَينِ بَدْءِ الخِلْقَةِ وبَدْءِ الوحي في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١-٢].

ثم في نشأته قال له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣] إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٥-٨]. وجعل الرَّغبة إليه في السُّورَة بعدها ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٨] فعدَّدَ النِّعَم الكبرى عليه: شرح الصَّدر، ووضع الوِزْر، ورفع الذِّكر.

ثم جاءت الإضافة في أثناء الكلام عن الدَّار الآخرة في قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٨].

كلُّ هذه الإضافات لكلمة ﴿ربّ﴾ إلى كلمةٍ تتعلَّق بشخص النَّبيِّ ﷺ مع أنَّ الله ﷻ ربُّ العالمين توضِّح لك أهمِّيَّة النَّبيِّ ﷺ، ومدى الرِّعاية التي يحظى بها من ربِّه ﷻ، وهنا تُردِّد مع أحمد مُحَرَّم رحمه الله:

الكونُ أشرق نضرةً ونعيما ... هذا مكانك فاتَّخِذْهُ كريما

حَنَّ الزَّمانُ إليك حتى جِئْتَهُ ... فطوى الحَنين وردَّدَ التَّسْلِيما

أنت المُؤَمَّلُ للشُّعوب وهذه ... دنياك لا تبغي سواك زعيمَا
خُذها من القوم الأُلى جَمَحُوا بها ... واسْرَعْ لهم نَهْجَ الحياةِ قويمَا
ماذا حَمَلْتَ من المعارفِ والنُّهى ... لمَّا حَمَلْتَ كتابَها المَرْقُومَا
عِلْمُ الحضارةِ كان قبلك خافيًا ... فأتيتَ تُظْهِرُ سِرَّهُ المَكْتُومَا

وبعد هذه الرِّعاية الكريمة للدَّوْحة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام تشعر بجمال الإضافة المتتابعة في قول ربنا ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١].

بصيرة [٩]: أضاف كلمة ﴿مَلِك﴾ إليك وإلى سائر الناس؛ لبيان القدرة المدبِّرة النَّافذة في التَّصَرُّف في عالم النّاس إحاطةً بهم، وحمايةً لهم، ونصرًا لمن استنصره منهم.

لا بد أن تسأل: أليس الله مالك المُلك، ومَلِك العالمين؟ فلماذا أضاف الله ﷻ هذه الكلمة ﴿مَلِكِ﴾ إلى النّاس مع أن النّاس بعض العالمين؟

الجواب: هو سبحانه مَلِك العالمين، ومالك الملك:

١) كما في قوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٢) وقوله تعالى ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، أي: له الملك كلُّه، وله الحمد كلُّه.

٣) وقوله ﷻ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩].

٤) فهو سبحانه وتعالى المتفرِّد بالملك لا شريك له في ملكه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] فبدأ بالحمد أولًا.

٥) ومثله قوله ﷻ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: ٨٣] بدأ بتسبيح نفسه وتنزيهه، لعموم الملك ومطلق التَّصَرُّف، ونفي الشريك؛ لأن مُلكه ملك تَصَرُّفٍ وتدبير مع الكمال في الحمد والتَّقديس.

وإذا كان الله ﷻ له المُلْك كلُّه: لا بد أن نبحث عن سِرِّ إضافة مُلْكه إلى النّاس، فمن ما يظهر لي من أسباب ذلك:

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ تُبيِّن مقدار العناية الإلهيَّة بالنَّاس، فمَلِك النّاس مَلِك كلِّ العالم، يحمي الإنسانيَّة من العالم حولها، ويحميها من نفسها، ويمنحها التَّكريم الذي يليق بمُلْكه ومجده وعظمته..

ولاحِظ في الترتيب: فالرَّبُّ قد يخلق ويُرَبِّي ويمنح من يُرَبِّيه الأصلح، لكنَّه ربما لا يَمْلِكه، وربما لا يَمْلِك غيره، فجاءت الآية الثانية لتطمئنَّ النَّاس الذين يُرَبِّيهم الله ﷻ بأنه مَلِكهم الذي به يحتمون وإليه يلجؤون، وبقوَّة ملكه يلوذون، فهو الحاكم فيهم، الحاكم لهم، المتصرِّف فيهم، المتصرِّف في غيرهم، المدبِّر لهم، المدبِّر لسواهم، قدرته النَّافذة تحيط بهم، وسلطانه تامٌّ عليهم وعلى غيرهم، فإلى من يلجؤون عندما يأتيهم العدوُّ الخطير، ويستحوذ عليهم الخطب الكبير؟

> **﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ تبيِّن مقدار العناية الإلهيَّة بالنَّاس، فمَلِك النَّاس مَلِك كلِّ العالم، يحمي الإنسانيَّة من العالم حولها، ويحميها من نفسها، ويمنحها التَّكريم الذي يليق بملكه ومجده وعظمته.**

ومن الفوارق التي بين مُلْك الله ﷻ ومُلْك المخلوق:

ذكرنا في صفة المستعاذ به أن مُلْك الله ﷻ ملكٌ شاملٌ للظَّاهر والباطن، وللحاضر والغائب، وللكُلِّ والجُزْء.

ونذكر مزيدًا منها:

أولًا: مُلْك المخلوق محدودٌ ضمن حدود مكانيةٍ وزمانيةٍ، ومُلْك الله ﷻ مطلقٌ عن كُلِّ ذلك، فهو خالق الزَّمان والمكان.

ثانيًا: مُلْك المخلوق يتعلق بالحكم والتصرُّف المحدود بحدود قدرة الحاكم والمحكوم، ومُلْك الله ﷻ مطلقٌ فيقدر ﷻ على فِعْل ما يشاء في المحكوم أو بواسطة المحكوم.

ثالثًا: مُلْك المخلوق يتعلق بالظَّاهر ومُلْك الله ﷻ يشمل السِّرَّ وأَخْفى.. يأمر المِلِكُ فتطيعه رعيته أو تعصيه، لكن مُلْك الله تعالى مُلْكٌ شاملٌ فهو الذي يخلق ويتصرَّف ويَسُوسُ ويَرْعى، يأمر فلا يستطيع أحدٌ أن يخرج عن إرادته، كما يَمْلِك الأجساد فهو يَمْلِك الأنفاس والحواس، ويُنَبِّئنا الله ﷻ عن هذا الشُّمول لمُلْكه فيقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

بصيرة [١٠]: أضاف الإلهيَّة إلى النّاس ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ ليكون دعاء المستعيذ خالص التَّوجُّه إلى الله ﷻ، لا يشرك في عبادته معه أحدًا، ولا يؤمِّلُ في طلبه أن يغيثه غيرإله النّاس.

فالحماية التي تحتاجها الإنسانيَّة هنا فريدةٌ جدًا لا يمكن أن توفِّرها المخابرات المدرَّبة، ولا القوات الخاصَّة، ولا الأسلحة الفتَّاكة، ولا الأسلحة الذَّكيَّة، ولا الحواسيب الفائقة الذِّكاء، ولا تِقْنِيَّات النَّانو.

إنها الحماية التي يطلبها المستعيذ من عدوٍّ خطير يوسوس في صدور النّاس، وقد يكون غير مرئيٍّ، وقد ينتمي إلى النَّاس أنفسهم، ولا يشعر به الموسوَس له.

فلا بد أن يُظهر المستعيذُ تَخَلِّيه عن كلِّ المعبودات، والمنقذين، وأن يتَّجِهَ بكُلِّيَّتِه إلى إله النّاس.

وكان هذا الثَّنَاء المفتاح الأعظم للدُّعاء.. يشرق قلبك وأنت تسمع النَّبيَّ ﷺ يُعَلِّمُه أصحابه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، فعن عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ ﷺ قال: لما كان يوم أُحُد وانكَفَأَ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أُثني على ربِّي»، فصاروا خَلْفَهُ صفوفًا فقال: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ

مَا مَنَعْتَ، اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ»[1].

الحماية من الوَسوسة -التي تحتاجها الإنسانيَّة- فريدةٌ جدًا لا يمكن أن توفِّرها المخابرات المدرَّبة، ولا القوات الخاصّة، ولا المُدَمِّرات الفتّاكة، ولا الأسلحة الذَّكيَّة، ولا الحواسيب الفائقة الذَّكاء، ولا تِقْنيات النَّانو.

بل هو ذِكْرُ الله ﷻ، وسورة النَّاس تُقَدِّم لنا ذِكْرًا مُمَيَّزًا لربِّنا، إنَّه «جَلاءُ القُلُوبِ وصِقالُها ودَواؤُها إذا غَشِيَها اعْتِلالُها، وكُلَّما ازْدادَ الذّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْراقًا: ازْدادَ المَذْكُورُ مَحَبَّةً إلى لِقائِهِ واشْتِياقًا، وإذا واطَأَ فِي ذِكْرِهِ قَلْبُهُ لِلِسانِهِ: نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ وحَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ وكانَ لَهُ عِوَضًا مِن كُلِّ شَيْءٍ.. وبِالذِّكْرِ: يَصْرَعُ العَبْدُ الشَّيْطانَ كَما يَصْرَعُ الشَّيْطانُ أهْلَ الغَفْلَةِ والنِّسْيانِ»[2].

(١) أحمد (١٥٤٩٢)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٩٦).

المحور الرَّابع: المستعاذ منه

مشكاة النُّور في مجابهة أخطر الشُّرور

آيات هذا المحور: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: ٤-٦].

المناسبة وجمال الانتقال:

بعد أن ذكر الله ﷻ صفاته الثَّلاث العظمى ليلجأ المستعيذ بحماها، ويتلذَّذ بِقُواها أوضح لنا المستعاذ منه، وهو الشَّرُّ المنبعث من الجِنَّة والنّاس بخفاء ودهاء.

الصِّفات البيِّنة للمستعاذ منه:

من أعظم ما يلفت نظرك في سورة النَّاس أن الله ﷻ قسَّم السُّورَة إلى قسمين متساويين:

فوصف نفسه ﷻ بثلاث صفات في الآيات الثلاث الأولى، ووصف المستعاذ منه في الآيات الثلاث الأخيرة.

وقد أظهر الله ﷻ لنا الصِّفات البيِّنة للمستعاذ منه، وهي:

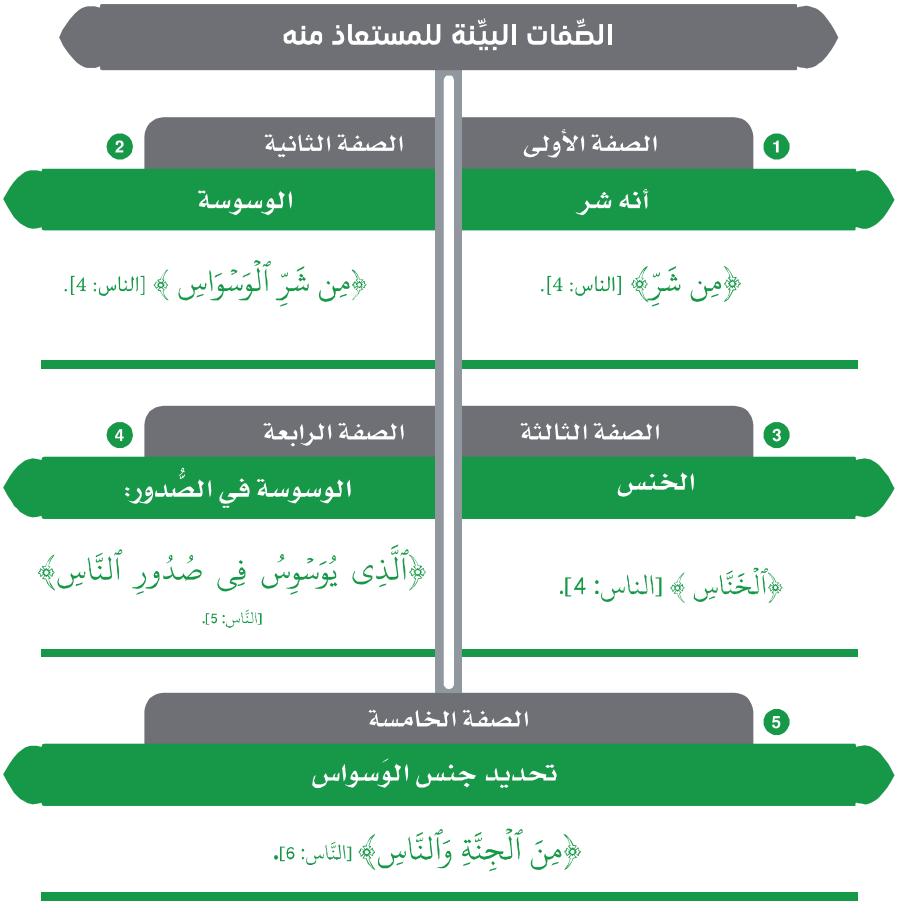

الصِّفة الأولى: أنه شَرٌّ، ويبصِّرنا بها قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ﴾ [الناس: ٤].

الصِّفة الثانية: الوسوسة، ويبصِّرنا بهذه الصِّفة قوله تعالى مجده: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: ٤].

الصِّفة الثالثة: الخَنْس: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

الصِّفة الرابعة: الوسوسة في الصُّدور: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٥].

الصِّفة الخامسة: تحديد جِنس الوَسواس، فهو لا ينتمي إلى الجنِّ فقط، بل ينتمي إلى الثَّقَلين: الجِنِّ والإنس، حيث قال الله ﷻ: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٦].

بعد أن ذكر الله ﷻ صفاته الثَّلاث العظمى ليلجأ المستعيذ بحماها إليها، ويتلذَّذ بِقُواها أوضح لنا المستعاذ منه، وهو الشَّرُّ المنبعث من الجِنَّة والنَّاس بخفاءٍ ودهاءٍ.

الصِّفة الأولى: أنه شَرٌّ، ويبصِّرنا بها قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ﴾ [الناس: ٤]:

عندما أراد الله ﷻ أن يذكر صفات الوسواس ابتدأ الله -عزَّ جاره- بتنبيهك إلى أن هذا الوسواس يحمل الشَّرَّ كُلَّهُ، فقال: ﴿مِن شَرِّ﴾ [الناس: ٤].

ولكنك ستسأل: ما معنى كلمة ﴿شَرِّ﴾؟ وكيف أظهرت المعنى بقوَّةٍ هنا؟

الجواب: كلمة ﴿مِن﴾ ابتدائية.

وعرَّف الراغب رحمه الله الشَّرَّ بأنه: الذي يرغب عنه الكلُّ، كما أنَّ الخير هو الذي يرغب فيه الكلُّ، قال تعالى: ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ [يوسف: ٧٧] (١).

وهذا تعريف دقيق، فإنك ترغب عن كلِّ ما يؤذيك، حتى لو كان نقصًا في الخير، ولعلَّ الشرَّ يسمَّى كذلك؛ لأنه ينشأ عنه الِانْتِشَار وَالتَّطَايُر مع عنف مضرٍّ سيئ، وشَرَارُ النَّار: ما تطاير منها، وسمِّيت بذلك لاعتقاد الشَّرِّ فيها، قال تعالى: ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]، وَالشَّرَارَةُ مفرد، وَالْجَمْعُ: الشَّرَارُ، وَالشَّرَرُ: مَا تَطَايَرَ مِنَ النَّارِ، الْوَاحِدَةُ شَرَرَةٌ (٢).

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٢٥٧).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ١٨٠).

الصِّفة الثانية: الوسوسة، ويبصِّرنا بهذه الصِّفة قوله تعالى مجده: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: ٤]:

الوسواس هو صاحب الشَّرِّ الخفيِّ، وقد تتساءل: لماذا يسمَّى صاحب الشَّرِّ الخفيِّ الوَسواس؟

الجواب: لأن كلمة الوسواس تصوِّر مقدار خطر هذا الشَّرِّ، فلا تجد كلمةً تعبِّر عن المَكْر الذي يَتَّسِمُ به صاحب هذا الشَّرِّ مثل كلمة ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، ولكي تتعرَّف إلى هذه الصِّفة جيِّدًا، تعال ننظرها في كلام العرب:

فالْوَسْوَاسُ اسْمٌ بِمَعْنَى الْوَسْوَسَةِ، كَالزَّلْزَالِ بِمَعْنَى الزَّلْزَلَةِ، وَأَمَّا الْمَصْدَرُ فَوِسْوَاسٌ بِالْكَسْرِ كَزِلْزَالٍ[1].

ولماذا سمَّى الله ﷻ الوسواس بهذه التَّسمية مع أن المراد به الموسوس؟

الجواب: سمَّى الله ﷻ الموسوس وَسواسًا مبالغة؛ لأن الوسواس صفته، فيقوم بتنفيذها بضراوةٍ بالغةٍ كما بُولِغَ في العادل بتسميته بالعَدْل، فالوَسواس بفتح الواو هو الموسوس، والوِسواس بكسر الواو هو الوسوسة.

وحقيقة الوِسواس والوسوسة: إلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير بصوت خفيٍّ[2]، مثل الصَّوت الخفيِّ الصَّادر من ريحٍ تهزُّ قصبًا ونحوه، وبه يُشَبَّه صوتُ الحُلِيِّ، ويعرِّفنا إليه عند العرب قول الأعشى:

---

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٣٠).

تسمع للحَلْيِ وسواسًا إذا انصرفت كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ [1]

أي: حرَّكت الرِّيح هذا النبت المسمى بالعِشْرق، فزجل أي: أصدر صوتًا خفيًّا من هذه الحركة.

وقال رؤبة يصف صائدًا مختفيًا يرقب صيده:

وَسْوَسَ يدعو مُخْلِصًا رَبَّ الفلق سِرًّا وقَدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ العُقُقْ [2]

والوَسوسة -بالفتح، والوِسواس- بالكسر: حديث النَّفس والأفكار الخفيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]: أي نعلم ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره، وفيه زجر عن المعاصي الخفية، وقد وَسْوَس: تكلَّم بكلام لم يبينه.

حقيقة الوِسواس والوسوسة: إلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير بصوت خفيٍّ مثل الصَّوت الخفيِّ الصَّادر من ريحٍ تهزُّ قصبًا ونحوه، وبه يُشَبَّه صوتُ الحُلِّيِّ.

(١) الوسواس: صوت جَرْسِ الحلي، والعِشْرِق: نبتٌ له ورق، إذا يبس أطارته الريحُ، فأسمعَتْ له زجلًا (صوتًا). ينظر: ديوان الأعشى الكبير (ص: ٥٤، ٥٥).

(٢) ديوان رؤبة بن العجاج (ص: ١٠٨)، يقول: لما أحس بالصيد وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة، (أوَّن): شربن حتى انتفخت بطونهن فصار كلُّ حمار منهن كالأتان العقوق، وهي التي تكامل حملها وقرب ولادها. ينظر: لسان العرب (٦/ ٢٥٥)، (١٠/ ٢٥٨).

الوسواس معانٍ وخواص:

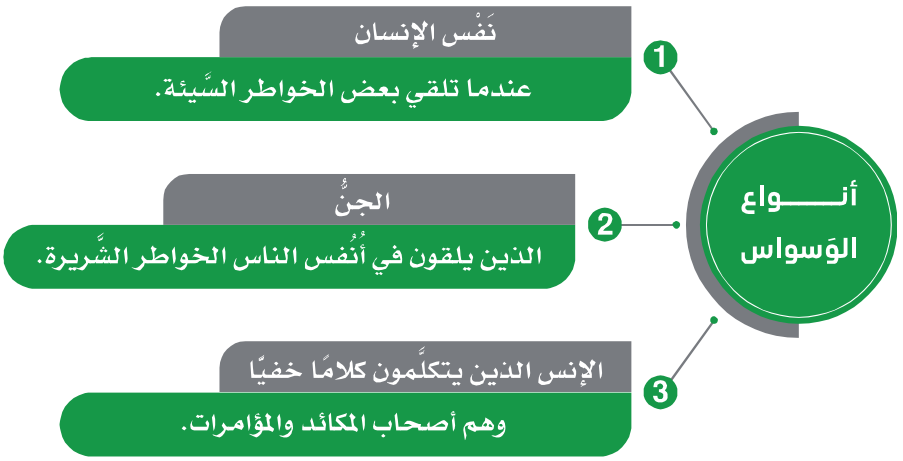

الوَسواس- بفتح الواو اسم فاعل-: هو الموسوس الجنِّيُّ والإنسيُّ؛ والوسوسة وسيلته في إيصال ما يريد، فيدخل فيه:

١) **نَفْسُ الإنسان**؛ عندما تلقي بعض الخواطر السَّيِّئة التي يتَوَهَّمُها، مثل: كلام يُكَلِّم به نفسه.

٢) **الجن**، الذين يلقون في أنفس الناس الخواطر الشريرة قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠].

٣) **الإنس الذين يتكلمون كلامًا خفيًّا**، وهم أصحاب المكائد والمؤامرات المقصود منها إلحاق الأذى من اغتيال نفوس، أو سرقة أموال، أو إغراء بالضلال والإعراض عن الهدى؛ لأن شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سرًّا؛ لئلا يطلع عليها من يريدون الإيقاع به، وهم الذين يتربصُّون برسول الله ﷺ الدوائر ويغرون الناس بأذيته.

صفات الوَسواس:

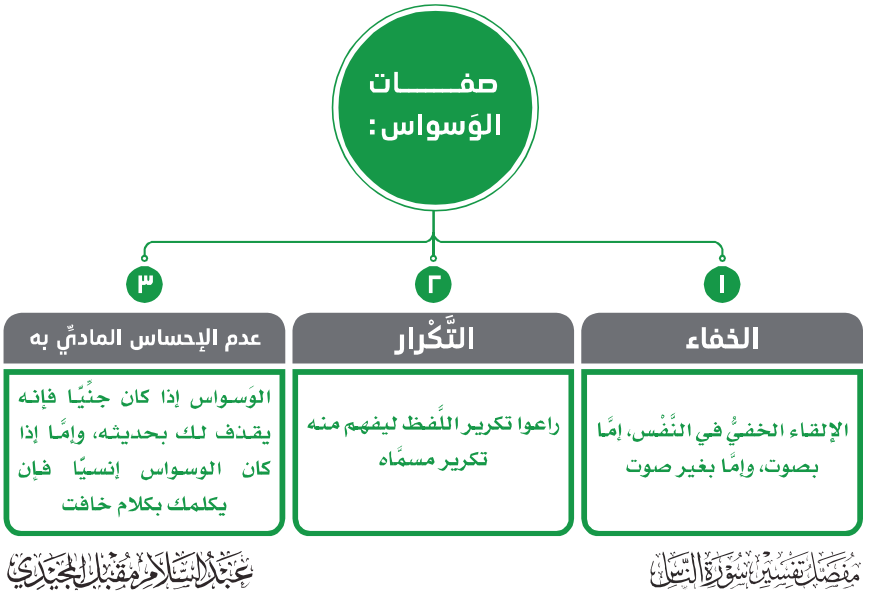

وهنا قد تسأل: ما خواص هذه الوَسْوَسة التي تمكن الوَسْوَاس أن يصنع ما شاء؟

الجواب: صفات الوَسْوَاس:

١) الخفاء

٢) التَّكْرَار.

٣) عدم الإحساس الماديِّ به.

أولًا: الخفاء: فهي الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشَّيطان إلى العبد، وقد تكون الوسوسة مُتَّجِهةً إلى الإنسان ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، وقد تكون مُتَّجِهةً إلى صدر الإنسان ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

ثانيًا: التَّكْرَار: فتناسب معنى الوسوسة ولفظها، فلما كانت الوسوسة كلامًا يكرِّره الموسوس، ويؤكِّده عند من يلقيه إليه كرَّروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وَسْوَسَ وَسْوَسَةً، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مُسمَّاه، ونظير ذلك: زَلْزَلَ، ودَكْدَكَ[1].

ثالثًا: عدم الإحساس المادي به، فلا تجد له من الإحساس ما تجده للضربة أو للكلمة مثلًا، فالوِسواس الحديث الخفي الذي لا يُحَسُّ إحساسًا ظاهرًا لكن الإنسان يشعر به، وهنا تلاحظ أن الوَسواس إذا كان جنيًّا فإنه يقذف لك بحديثه، وتشعر بذلك فيما تحدِّثك به نفسك حيث تفكِّر وتقدِّر، وتخطِّط وتدبِّر، وأمَّا إذا كان الوَسواس إنسيًّا فإنه يكلمك بكلام خافتٍ، فيحثُّك على الشَّرِّ، ويدفعك إليه بتزيينه في نظرك.

وأنشدنا محمد المثيل –غفر الله له–:

أعوذ بالله من وِسواس وَسواسِ ... يأتي مِن الجنِّ أو يأتي من النَّاسِ

يُحَدِّثُ النَّفسَ بالآثام يَدفَعُها ... دفعًا فتنقادُ إذعانًا بلا باسِ

فتَستَلِذُّ معاصي الفِسق تَألفُها ... تغدو مع الذَّنب في وُدٍّ وإيناسِ

حتَّى إذا عاد عقلي كي يفارقها ... كأن في قطعها قطعًا لأنفاسِي

لكن إذا ثاب قلبي نحو خالقِهِ ... تأتي البصيرةُ تُذْكِي نورَ إحساسي

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠، ٢٥١)، ومثل: قلقل، وكبكب الشيء، ورضرضه إذا كرر رضّة مرة بعد مرة، ومثله: ذرذره. إذا ذره شيئًا بعد شيء. ومثله صرصر: الباب: إذا تكرر صريره. ومثله: مطمط الكلام: إذا مططه شيئًا بعد شيء. ومثله: كفكف الشيء: إذا كرر كفَّه، وهو كثير، فهي حركات متكررة، بخلاف الثلاثي المضاعف، فلا يدل على تكرار مثل ذرَّ الشيء وصرَّ الباب، وكفَّ الثوب، ورضَّ الحبَّ.

الوَسواس إذا كان جنيًّا فإنه يقذف لك بحديثه، وتشعر بذلك فيما تحدِّثك به نفسُك حيث تفكِّر وتقدِّر، وتخطِّط وتدبِّر، وأما إذا كان الوَسْواس إنسيًّا فإنه يكلِّمُك بكلام خافت.

وهنا قد تتساءل: إذا كان الوَسواس يتَّصِف بالخفاء والتَّكرار مع عدم الشُّعور الماديِّ القويِّ به، فإلى أيِّ المخلوقات ينتمي هذا الوَسواس؟

الجواب: ينتمي إلى بطانة السُّوء الظَّاهرة، وهم أصحاب الشَّرِّ من البشر، وإلى بطانة السُّوء الباطنة وهم أصحاب الشَّرِّ من الجِنِّ، وإنما سُمِّي المُوَسْوِس وَسواسًا؛ لبيان شدة حرصه على إحداث التغيير السَّيئ فيمن يُوَسْوِس له كَأَنَّها وَسْوَسَةٌ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهَا صَنْعَتُهُ وَشُغْلُهُ الَّذِي هُوَ عَاكِفٌ عَلَيْهِ[1].

وبذا ترى الوَسواس الجِنِّيَّ: يهمس في صدرك بالشيء، ويكرِّر ذلك مرَّةً بعد أخرى حتى يتمكَّن منك، وترى الوَسواس الإنسيَّ: يكلِّمُك بصوت خفيٍّ عن الآخرين، حتى لو كنتم أمام غيركم، وقد يكلِّمُك بخفاء مع أنه لا يوجد غيركم لرغبته في التَّأثير عليك، وإيهامك أنه ناصح مُحِبٌّ[2].

وهذا التَّكرار يقتضي الحذر وكثرة الاستغفار، فأَهَمُّ الحصون التي تحمي من الوَسواس الخَنَّاس: ذِكْر الله ﷻ، وحتى يظهر أثر ذِكْر الله ﷻ في حماية الذَّاكِر من الوَسواس الخَنَّاس

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٧).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠).

يجب أن يكون الذِّكْرُ صُورةً وحقيقةً، ويجاهد الإنسان نفسه ليستطيع أن يجمع بين الصُّورة والحقيقة.

ستقول: ما معنى أن يكون ذِكْر الله ﷻ صورةً وحقيقةً؟

الجواب: ذِكْرُ الله ﷻ صورةً بأن تُرَدِّد بلسانك المُعَوِّذتين والأذكار المُتنوِّعة المباركة، وذِكْرُ الله ﷻ حقيقةً بأن تجمع بين اللسان والقلب عندما تذكر الله ﷻ.. ذلك يعني أن تستشعر عظمة الله ﷻ، ويمتلئ قلبك من هيبته –جل مجده– فتنزجر عن معصيته، وتنتهي عن غيِّك وعَمَهِك، وتقطع على عدوِّك الوَسواس حَبَائِلَه التي لطالما جَرْجَرَك بها في وحول الشَّهوات، ومستنقعات السَّيِّئَات.

إنَّ ذِكْرَ الله ﷻ صورةً وحقيقةً هو الذي يجعل عمل الَوسواس الخَنَّاس عذابًا عليه، ويحقِّق بذلك أمل النَّبيّ ﷺ في المؤمن، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»[1]؛ ومعنى "ينضي" يُتعِب ويُعذِّب.

وهنا يقرِّر ابن القَيِّم ﷺ: «فمن لم يعذِّب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذَّبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذِّب شيطانه أو يعذِّبه شيطانه»[2].

(١) أحمد (٨٩٤٠)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف؛ ابن لهيعة سيئ الحفظ»، وحسن الألباني إسناده، معللًا ذلك بأن ابن لهيعة صحيح الحديث من رواية قتيبة. الصحيحة (٣٥٨٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٦).

ذِكْرُ اللهِ ﷻ صورةً أن تُرَدِّد بلسانك المُعَوِّذتين والأذكار المتنوعة المباركة، وذِكْرُ اللهِ ﷻ حقيقةً أن تجمع بين اللسان والقلب عندما تذكر الله ﷻ.. ذلك يعني أن تستشعر عظمة الله ﷻ، ويمتلئ قلبك من هيبته –جل مجده– فتنزجر عن معصيته.

الصِّفة الثالثة: الخنس: ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]:

يعتمد عمل الوَسواس في الوسوسة على خُطَّةٍ خبيثةٍ مؤثِّرةٍ (تكتيك) يلخِّصُها وصفه بأنه الخَنَّاس.

وهنا لا بد أن تتساءل عن هذا الوصف العجيب: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، ماذا يعني[1]؟

الجواب: هذه الكلمة صيغة مبالغة من اسم الفاعل، فالأصل: خَنَس، والفاعل: خانس، وأما خَنَّاس فصيغة مبالغة، اشتق من الخنْس، والخنوس، وهو الذَّهَابُ فِي خُفْيَةٍ، ومنه خَنَسُ الأنف: تأخُّرُه عن الوجه؛ مع ارتفاعٍ قليل في الأرنبة، فهي صفة تدل على استخفاءٍ واسْتِتارٍ وتأَخُّرٍ وانقباض في خُفْيةٍ، ومن ذلك الخُنَّس: وهي النُّجوم التي تخنس، أَيْ تخفى نهارًا وتطلع ليلًا، ومن ذلك قول العَلَاء بن الحَضْرِمِيِّ:

وإِنْ دَحَسُوا بالشَّرِّ فَاعْفُ تَكَرُّمًا ... وإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ

وهنا ستسأل: كيف يحدِّد لنا هذا الوصفُ عملَ الشَّيطان الجِنِّي والإنسيِّ بدِقَّةٍ؟

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٢٣)، تاج العروس (١٦/ ٣٢).

الجواب: اتَّسَم هذا الوَسواس بأنه خنَّاس في الوقت ذاته: أي اتّصف بالاستخفاء والاستتار والتأخُّر والانقباض في خفية، فإذا جمعت ذلك إلى تكرار الوَسوسة هنا ترى مكرًا كُبَّارًا من فاعل ذلك إن كان مراده المكر والعبث.

فالخَنَّاس هو الذي يُكْثر الاختفاء، ولا يكون كثير الاختفاء إلا إذا كان كثير الظهور، فهو يظهر ثم يختفي ويتقهقر ويتأخَّر، ثم يرجع مجدَّدًا ليكون أكثر قدرةً على التَّأثير، كما أنَّ الخَنْس يدلُّ على رغبة الوَسواس أن يحدِث الأثر الكبير، ولذا لا يستعجل حصول الثَّمرة، بل يُكرِّر ما يُوسوس به على فتراتٍ مُتقَطِّعَةٍ، ويركِّز الوَسوسة حتى يصل منها إلى مُبتغاه ويحقِّق هدفه، كما أن الخَنْسَ يشير إلى أنه يُخفي عن الآخرين ما يقوم بالوَسوسة لأجله حتى يأتي الوقت المناسب لإبرازه، ويبيِّن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رحمه الله مثالًا لهذه الحركة الخطيرة للوَسواس وهي الخنوس، فيقول: «إِذَا ذَكَرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ خَنَسَ الشَّيطان وَوَلَّى، فَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ إليه»[1].

> **الخَنَّاس هو الذي يُكْثر الاختفاء، ولا يكون كثيرَ الاختفاء؛ إلا إذا كان كثيرَ الظهور، فهو يظهر ثم يختفي ويتقهقر ويتأخّر، ثم يرجع مجدَّدًا ليكون أكثر قدرةً على التَّأثير.**

وتصوَّر حركةً من أقوى أعماله: فهو يخبرك بموضوع أو يُذَكِّرك به ثم يسكت عن ذلك الموضوع، فيخنس عنه، ويَسْتَأْخِر، وينقبض، ثم يعود مُجدَّدًا، فيكلِّمك بخفاء دون صوت بحركاته وأفعاله إن كان إنسيًّا؛ أو برفع صوته لكن مع خفاءٍ في المكان أو الطَّريقة، فلا تكونَنَّ

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٧).

أمام الناس حتى تتبنَّى ما يريد من شَرٍّ، ومثله الشَّيطان الجِنِّي فيثير عندك أمرًا كشهوةٍ مُحرَّمةٍ، ثم يرجع، فيتركك، ثم يعود إلى إثارته في ذِهنك حتى يثبت الأمر في نفسك، أو يُذكِّرك في أثناء صلاتك بالصُّور التي رأيتها، ثم يرجع عنها ثم يعود فيذكِّرك بها حتى تَسْتَحْلِيهَا وتمضي فيها، وهكذا يُدمِّر عليك صلاتك، وينقل لنا أبو هريرة ﷺ هذا، فيحدِّث أن النَّبيّ ﷺ قال: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيطانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاة أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[1].

وعندما ترى صيغة المبالغة: "الخَنَّاس" تشعر بأنها تُنبِّهك بقوَّةٍ إلى طبيعة عمل هذا الشِّرِّير، فهو لا يكسل، ولا يفتر، ولا ينقطع، فهو يُوَسْوِسُ ثم يَخْنُس، ثم يُوَسْوِسُ ثم يَخْنُس حتى يحقِّق هدفه.

صيغة المبالغة: "الخَنَّاس" تنبِّهُك بقوَّةٍ إلى طبيعة عمل هذا الشِّرِّير، فهو لا يكسل، ولا يَفْتُر، ولا ينقطع، فهو يُوَسْوِسُ ثم يَخْنُس، ثم يُوَسْوِسُ ثم يَخْنُس حتى يحقِّق هدفه.

في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] كلاهما صيغة مبالغة من الوَسوسة والخَنْس، فـ(الوَسواس) كثير الوَسوسة ليُضِلَّ بها الناس، و(الخَنَّاس) كثير التأخُّر والرُّجوع عن إضلال النّاس، فكيف اجتمع المعنيان المتنافيان؟

(١) البخاري (٦٠٨).

الجواب: هنا تظهر قوته، فهو يُوسوس ثم يَخْنُس، ثم يعود فيوسوس ثم يَخْنُس، ويظلُّ هكذا حتى يحقِّق هدفه، وهنا يكتسب هذا الشرُّ قُوَّتَه، فهو لا يهاجم بكامل قُوَّتِه في وقتٍ واحدٍ، بل يتقدَّم ويتأخَّر، ويهاجم ويتقهقر، ويوهِم من يُوسوس له أنه قد نجا منه، ولكن شرَّه يظلُّ ملازمًا لحياة الإنسان إلى مماته، فربما وَسْوَسَ للإنسان، فوضع فيه بذور الطمع، وأصول الذُّنوب، فيصدّه العبد الذَّكَّار، فيخنس، ثم يعود، فيعمل على تنمية البذور التي وضعها سابقًا، حتى لربَّما أوقع هذا العبد الذَّكَّار بعد الصدِّ والانتصار، وأعظمُ أَوْجُهِ صَدِّه الذِّكْر؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وعندما يذكر العبد ربَّه ﷻ يخنس هذا الشَّرُّ عنه، فقد قال قَتَادَة رحمه الله: «الخَنَّاس يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ خَنَسَ» (١).

لكنه يخنس، ولا ييأس، فيعاود الوَسوسة سريعًا حتى يغفل الإنسان، ويعشو عن ذكر ربِّه، وحينها يتمكَّن منه الشَّيطان.. هنا تعلم لماذا حذَّرنا الله ﷻ من أنَّ الوَسواس يسيطر على الذي يُعرض عن ذِكْر الرَّحمن، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وجيء بلفظ الفعَّال (الخَنَّاس) دون الفاعل؛ إعلامًا بهذه الاستراتيجية الخطيرة، فهو يهرب بشدَّةٍ عند ذِكْر الله ﷻ، وأيضًا هو يخنس بعد أن يبذر في فِكر الإنسان أصول الذُّنوب، فلا يوقعه في الذَّنب مباشرةً، وذلك ليطمئنَّ إلى قُوَّة فَتْكِه بالإنسان بعد أن يُوصِله إلى درجة الغفلة.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/ ٤٧٨) (٣٧٥١).

ولا بد عند ذلك أن تسأل: فكيف النَّجاة منه؟ وما أهمُّ وسائل ذلك؟

الجواب: هذا التكرار يقتضي الحذر، وأعظم وسائل صَدِّ الوَسواس الخَنَّاس الدوام على ذِكْر الله ﷻ، وكثرة الاستغفار، والصَّلاة، وملازمة الإحسان إلى الآخرين، ولا تستطيع المداومة الحقيقية على الأذكار إلا باتباع السُّنَّة، فتَذْكُر الله ﷻ في نفسك، وتذكره في ملأٍ، وتذكره دون الجهر من القول، وتذكره بالغُدوِّ والآصال، فعَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ، عَمَّنْ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارٍ، فَعَثَرَ الْحِمَارُ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ، وَقَالَ: صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي، فَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ، تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ»، وفي رواية: «وَإِذَا قِيلَ: بِسْمِ اللهِ خَنَسَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»[1].

وإذا قَلَّلْتَ حَذَرَك من الخَنَّاس ألفيت نفسك تتحوَّل رويدًا رويدًا إلى وظيفته، كما قال الفقيه الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الرَّمليُّ الشَّافعيُّ رحمه الله:

وإنْ وقعْ نَشْءُ الوَلَدْ بغيرِ ما ... قلنا به أضحى كَذُوبًا نَهِما

مُفَاخِرًا مُبَاهِيًا للنَّاسِ ... مُلازِمًا طَبائعَ الخَنَّاسِ[2]

أعظم وسائل صَدِّ الوَسواس الخَنَّاس الدَّوام على ذِكْر الله، وكثرة الاستغفار، والصَّلاة، وملازمة الإحسان إلى الآخرين، ولا تستطيع المداومة الحقيقيَّة على الأذكار إلا باتِّباع السُّنَّة.

---

(١) أحمد (٢٠٥٩١)، وصححه الأرناؤوط، والرواية الثانية للحاكم (٧٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٢٩).

(٢) سَمْطُ العِقيان شرح بغية الإخوان ورياضة الصبيان للرملي، الإمام عبد الله بن أحمد باسَوْدان (ص: ١٤٧).

الصِّفة الرابعة: أَهَمُّ الصِّفات المدمِّرة لهذه البطانة المجرمة (الوَسوسة في الصُّدور) ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٥]، وإنما نصَّ على الصُّدور؛ لأن هذه البطانة لا تكتفي بالوَسوسة بل تصبُّ أفكارها الخبيثة في مكان التركيز.. إنها تجعل وَسوستها في مركز صُنْع القرارات، ووَضْعِ الخطط وهو الصُّدور.

فقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول يشير إلى الوسواس الخَنَّاس، وقوله ﴿يُوَسۡوِسُ﴾ يصوِّر لك الفعل المضارع العمل الدائم الذي يحرص عليه الوَسواس، وقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ينبِّئك إلى المحلِّ المباشر الذي يحاول الوَسواس التَّأثير عليه، وهو الصَّدر، فذكر وَسوسته أولًا، ثم ذكر محلَّها ثانيًا وأنَّها في صدور النَّاس.

وهنا ستسأل عن العلاقة المباشرة بين الوَسواس وصُدور النّاس؟

الجواب: إذا كان الوَسواس إنسيًّا فإنه يؤثِّر بصورة مباشرة في صدر من يوسوس له، فإن كان ما يقوله خيرًا أثَّر عليه، وإن كان ما يقوله شَرًّا أثَّر عليه، مع وجود فرقٍ بين الأَثَرَيْنِ بلا شكٍّ..

ودعني أضرب لك مثالًا في أثر الصَّاحب الصَّالح في صدر صاحبه فهذا أبو هريرة ﷺ يشعر بأثر كلام النَّبيِّ ﷺ في صدره، فقال عن نفسه: «وَكُنْتُ امْرَءًا مِسْكِينًا أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ، وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: «لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا» فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا، حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا»[1].

(١) البخاري (٢٣٥٠).

وكان النَّبيُّ ﷺ كثيرًا ما يضع يده على صدور أصحابه داعيًا لهم، فهاهو جرير بن عبد الله البَجَلِيّ رضي الله عنه يقول: مَا حَجَبَنِي النَّبِيِّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي، وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»(١).

وفي مقابل هذا فإن الوَسواس الإنسِيَّ يصنع شيئًا كبيرًا في صدور من يوسوس إليهم.

أما الوَسواس الجِنِّي فله نفوذٌ خاص في جوف الإنسان، فهو يجري منه مجرى الدم، فقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَحابِيَّيْنِ من أصحابه: «إِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا»(٢).

والوَسواس الجِنِّيُّ يلازم الإنسان، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»، قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» (٣).

ومن وَسوسته: أنه يشغل القلب بحديثه حتى ينسي الإنسان ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النِّسيان إليه، كما قال تعالى عن صاحب موسى عليه السلام: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وتراه يزيِّن سوء العمل كما في قصَّة آدم عليه السلام، وهل ظهر لهما أم وَسوس فقط؟ يحتمل هذا وذاك.

---

(١) البخاري (٣٠٣٥).

(٢) البخاري (٦٢١٩).

(٣) مسلم (٢٨١٤).

الصَّدر المكان المفضَّل لعمل الوَسواس:

يمضي الوَسواس الخَنَّاس، فيتلاعب بالإنسان في صدره، وهناك يزيِّن له بعض الإثم، ويتجلجل الإنسان ممَّا يحيك في صدره لكن كثرة الوَسوسة تجعله يقبل ذلك.. احترس ممَّا يحيك في صدرك، فإنَّه الإثم ذاته لكنَّه ربَّما لم يخرج بعد، ويصوِّر لنا النَّبيُّ ﷺ هذا تصويرًا قويًّا عظيمًا، فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[1].

وقد تتساءل: هل يحاول الوَسواس أن ينسيك الأمور الدِّينيَّة فقط أم يدخل في ذلك الأمور الدُّنيويَّة، فقد رأينا أنه أنسى صاحب موسى عليه السلام الحوت، وهذا أمر يتعلق بغدائهما، وليس أمرًا دينيًّا؟

الجواب: هذه الحادثة تنبئك أن الوَسواس يحاول أن ينسيك كلَّ ما يمكن أن يؤدِّي إلى فلاحك من الأمور الدِّينيَّة، والدُّنيويَّة؛ لأنه يريد للإنسان الشَّقاء، فصاحب موسى عليه السلام نسي الحوت؛ لأن الحوت يتعلَّق بأمرين: الغداء ليَتَقَوَّيَا على طاعة الله عز وجل، واللقاء بالخضر حيث سيتعَلَّمُ موسى عليه السلام علومًا جديدة، وكان الحوت علامةً على مكان اللقاء.

> **الوَسواس يحاول أن ينسيك كل ما يؤدي إلى فلاحك من الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ لأنه يريد للإنسان الشَّقاء، فصاحب موسى عليه السلام نسي الحوت، وهذا أمر يتعلَّق بغدائهما، وليس أمرًا دينيًّا.**

وهنا ربما تتعجب، وتتساءل: لماذا ذكر الله عز وجل الصدر ولم يذكر القلب؟

---

(١) مسلم (٢٥٥٣).

ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر: فالوسوسة تارة تتعدى بإلى، وتارة باللام، ففي سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وفي طه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، ولكن الله ﷻ لما ذكر الشرَّ العام للوسوسة هنا عدى فعل ﴿يوسوس﴾ بالحرف ﴿في﴾ فقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فلماذا؟

الجواب: لأن الصَّدْرَ يمثِّل السَّاحة الكبرى التي يوجد فيها أكبرُ مراكز التَّوجيه وصُنع القرار في الإنسان، وهو القَلْب، وهنا يحوم الشَّيطان حول القلب، حيث يستقرُّ في ساحته، ولا يتمكَّن من الدُّخول المباشر إلى القلب، لكنَّه يُوسوس في الصَّدر وَسْوَسَةً واصلةً إلى القلب..

ولكن السؤال: هل تصل فتستقر في القلب أم تصل إليه فيردها؟ وأما قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، فهو بيان أنها وصلت، ولأنها وصلت أخذت حيزًا من تفكير آدم وزوجه عليهما السلام، فأثَّر ذلك فيهما، فوقعا، ثم استدركا، فتابا، وذكر ابن عاشور رحمه الله أن تعدية فعل (وَسوس) في سورة طه بحرف (إلى)، وباللام في سورة الأعراف باعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلِّم، فإنه فعل قاصِرٌ لا غنى له عن التعدية بالحرف، فتعديته بحرف (إلى) هنا باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغها إياه، وتعديته باللَّام في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما [1].

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٥).

الوَسوسة تكون في الصَّدْر، حيث يحاصر الوَسْواس الجنِّيُّ والإنسيُّ القلبَ من جهاته المتعدِّدة؛ إذ الصَّدر يحمل القلب ويحوطه، فسلَّط الوَسواس وَسوسته على القلب من مأمنه وساحته، وهو الصَّدر، فمن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصَّدر، ثم تتفرَّق على الجنود.

وقد فرَّق الله ﷻ بين القلب والصَّدر في حدوث التأثُّر في قوله جل مجده: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فمحلُّ الابتلاء الصُّدور، ومحلُّ التَّمحيص القلوب، وقد تتساءل أيضًا عن الفرق بينهما؟

والجواب: التَّمحيص مشتقٌّ من مَحَصَ، ويَدُلُّ عَلَى تَخْلِيصِ شَيْءٍ وَتَنْقِيَتِهِ ممَّا فيه من العيوب والنَّقائص، وَمَحَصَهُ مَحْصًا: خَلَّصَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَمَحَصَ اللهُ الْعَبْدَ مِنَ الذَّنْبِ: طَهَّرَهُ مِنْهُ وَنَقَّاهُ، فالمَحْص كالفَحْصِ، لكن الفحص بحث عن العيوب والمناقب، والمحص إزالةٌ للعيوب، يقال: مَحَصْتُ الذَّهب ومَحَّصْتُهُ: إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث[1].

ماذا تستنتج بعد هذا؟

أجيبك بأن: التَّمحيص يأتي بعد الاختبار والابتلاء.

الابتلاء يكون لِمَا في الصُّدور؛ لأن الابتلاء يَمثِّل المرحلة الأولى، ثم تأتي مرحلة التَّمحيص لِمَا في القلوب، فتحدث الشِّدَّة أو المصيبة، فيتعرَّض لها الصَّدْر، مثل النَّار التي يعرض عليها الذَّهب، وكما يذهب الزَّبَد والزَّوائد التي ليست من الذَّهب عند عَرْضِه على النَّار، كذلك يذهب الزَّيْف والأهواء الباطلة والمظاهر السَّيِّئة في أثناء الابتلاء للصَّدر، وبعد

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٠٠)، المفردات الراغب (ص: ٤٦٤)، المعجم الاشتقاقي (٤/ ٢٠٣٦).

هذه الشِّدَّة، يخرج الصَّدْر سليمًا، ولكن هناك بقعة في الصدر تخرج مُمَحَّصَةً، أي: قد زالت عيوبها وذنوبها وأهواؤها.. إنها القلب، حيث يخرج القلب صافيًا، فتذهب أوضارُه ورَانُه وزَيفُه وزَبَدُه؛ لأَنَّ القلب هو مَلِك القرار، فالصَّدْر هو السَّاحة المحيطة، والقلب هو أهمُّ جزء في هذه السَّاحة، والابتلاء يحدث للصَّدر كُلِّه، والقلب جزءٌ منه، ولكن التَّمحيص يعني إزالة كلِّ شيء رديء من أهمِّ جزء فيه وهو القلب.

هنا ندرك لماذا يوسوس الوَسواس الخَنَّاس في صدور الناس لا قلوبهم؛ لأنه يوسوس في الصدر حول القلب ليُسمع القلب، فهو يحوم حوله في المنطقة التي تحيط به في الصدر.

فيدخل الشَّيطان إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، ولهذا قال تعالى عن وسوسة الشَّيطان لآدم عليه السلام: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، ولم يقل «فيه» لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه، فدخل في قلبه[1]، هكذا قرر ابن القَيِّم رحمه الله، ولو أكمل فقال: يوسوس في الصدر إلى القلب، والقلب يقبل ذلك أو يرفضه.

فنخلص إلى عبارة واحدة جامعة بين الحروف الثَّلاثة التي تعدَّى بها فعل الوسوسة بأنه: يوسوس للإنسان، في صدره، إلى قلبه.

وأنشدنا محمد المثيل -عفا الله عنه-:

وَسوَس الشَّيطانُ (للإنسان) شَرًّا (وإلى القلب) رمى الوِسواس سِرًّا
﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ للعصيانِ أجرى فاز مَنْ غَالَبَهُ وازداد ذِكرًا

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٢).

وشرور الوَسوسة مقترنة بالإنسان؛ لأنها تؤثِّر بصورةٍ مباشرة في صدره وعقله وقلبه، فهي أخطر من غيرها وأولى بالحذر لِمَا تُحدِثه من أثر كثير الضَّرر، عظيم الأذى والكدر، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣].

والوَسوسة التي تمثِّل الشُّرور الدَّاخليَّة لا تبارح الإنسان، ولا يستطيع المرء تمييزها فهي أسوأ من الشُّرور التي لا تُرى، التي ختمت بها سورة الفلق، ويصوِّر النَّبيُّ ﷺ شيئًا منها فيقول: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]»(١).

قال ابن الأمير الصَّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنَّ الخواطر تنقسم إلى ما يُعلم قطعًا أنه داعي الشَّرِّ فلا يخفى كَونُه وَسوسة، وإلى ما يُعلم كَونُه داعي الخير فلا يشكُّ في كونه إلهامًا، وإلى ما يتردَّد فيه فلا يدري أن من أيِّ القبيلين؛ فإن من مكائد الشَّيطان أنه يعرض الشَّرَّ في معرض الخير، والتَّميز بينهما غامض فحُقَّ بالعبد أن يقف عند كلِّ هَمٍّ يصدر له، ليعلم أن لَمَّة الملك أو لَمَّة الشَّيطان، وأن يمعن النَّظر فيه بنور البصيرة، لا هواء الطَّبع، ولا يطلع عليه إلا بنور اليقين، وغزارة العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١](٢).

---

(١) الترمذي (٢٩٨٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الأَحْوَصِ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الأَحْوَصِ»، وضعفه الألباني، ثم صححه في هداية الرواة (٧٠)، (النصيحة ٣٤)، صحيح موارد الظمآن (٣٨).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٦٩، ٧٠).

الوَسوسة لا تبارح الإنسان، ولا يستطيع تمييزها فهي أسوأ من الشُّرور التي لا ترى، لأنها تؤثِّر بصورةٍ مباشرة في صدره وعقله وقلبه، فهي أولى بالحذر لما تُحْدِثُه من أثرٍ كثير الضَّرَرِ، عظيمِ الأذى والكَدَر.

الصِّفة الخامسة: تحديد جنس الوَسواس، فهو لا ينتمي إلى الجنِّ فقط، بل ينتمي إلى الثَّقَلين: الجِنِّ والإنس، إذ قال الله ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٦].

فعند قراءة هذه الآية: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، كلمة ﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس، وقد تقدَّمها قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] **فما الذي بيَّنَتْهُ كلمة ﴿مِن﴾: هل بَيَّنَتْ كلمة: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ فيكون المعنى: الوَسواس فاعل الوسوسة ينتمي إلى الجِنَّة والناس، أم بَيَّنَتْ كلمة ﴿النَّاس﴾ في قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فيكون: المعنى: الموسوس في صدورهم قسمان: إنسٌ وجِنٌّ، فالوَسواس يوسوس للجِنِّي، كما يُوسوس للإنسي؟**

الجواب: ذهب الفرَّاء رحمه الله إلى أن كلمة ﴿مِنَ﴾ هنا تبيِّن كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في آخر الآية السابقة كقولك: يوسوس فِي صدور النَّاس: جِنَّتِهم ونَاسِهم، فكلمة (ناس) تصلح لأن تطلق على الجِنِّ بالقياس على لفظتي رَجُل ونَفَر، حيث قال الله ﷻ: ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦][1].

وجمهور المفسِّرين على أن الذي يوسوس في صدورهم هم من الإنس، وأنَّ الآية الأخيرة بيانٌ لجِنس الوَسواس الخَنَّاس، وليس لجِنس المُوَسْوَس في صدورهم، فالمُوَسْوَسُ في

(١) معاني القرآن للفراء (٣/ ٣٠٢).

صدورهم هم النَّاس، ولكن ذلك لم يرد، وأما إطلاق الرِّجال والنَّفر على الجِنِّ، فقد جاء مقيَّدًا لا مطلقًا.

والجِنَّة: اسم جمع جِنِّي بياء النسب إلى نوع الجِنِّ، فالجِنِّيُّ الواحد من نوع الجِنِّ، كما يقال: إنسيٌّ للواحد من الإنس.

وعندي: أنه بيانٌ لكليهما فما المانع أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] شاملًا للجهتين معًا: الوَسْواس، والمُوَسْوَس في صدورهم؟ فإذا قلنا بأن الإنسيَّ قد يوسوس إلى الإنسيِّ على نحو فيه بعض الاختلاف في الهيئة عن وَسوسة الجِنِّي للإنسيِّ، فما المانع أن يُوسوس الجِنِّيُّ للجِنِّيِّ على طريقةٍ تُشبه وَسوسة الإنسيِّ للإنسيِّ؟

فالجِنُّ مكلَّفُون، وهم كما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ [الجن: ١١][1].

لكن الواضح النَّافع لنا -معاشر النّاس- أن ننتبَّه إلى أن الآية تدلُّ اتفاقًا على جهود يبذلها الوَسواس الخَنَّاس في صدور النّاس، وعلى أنَّ المُوسوسين يهدفون إلى أن يملؤوا حياتنا بالشَّرِّ بتلك الجهود الضخمة التي يبذلونها من خلال الوَسوسة، ولهذا القول دوافع تُسنِده قد ذكرها القرآن، ومنها:

١) حسد إبليس من تكريم الله ﷻ آدم عليه السلام: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

---

(١) ومما هو أقرب إلى أن يكون من بدع التفسير قول أبي السعود رحمه الله: «وأقرب منه أن يراد بالناس الناسي، ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يدع الدَّاعِ﴾، ثم يبين بالجنة والناس، فإن كلَّ فردٍ من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى، إلا من تداركه شوافع عصمته، وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى من الغفلة عن ذكره ووفقنا لأداء حقوق شكره». انظر: تفسير أبي السعود (٩/ ٢١٧).

٢) العداوة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤].

٣) إبراءً للقَسَم على إغواء بني آدم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ومن أبرز أنواع الوَسوسة اليوم: الوَسوسة عن طريق الإعلام والتَّعليم، حيث تُسرق العقول بهدوء، ووَفْقَ شرعيَّةٍ يُقيمها البشر لأنواعٍ قذرةٍ خَفِيَّةٍ من الوَسوسة، خذ فقط فيلمًا مشهورًا جدًّا مثل: (أفاتار) لتجد أن الوَسوسة واضحة جدًّا في ادّعاء أن الشجرة المعبودة هي التي تغيث المظلومين أمام هجمات المجرمين.

وقد تأتيك الوَسوسة بصوت مرتفع، أو خطاب مُقنعٍ في هيئة ناصحٍ مُدافع، على قالب مخادع من محلل سياسيٍّ، أو خطيب مُفَوَّهٍ، أو إعلاميٍّ فصيح، أو محاضر، أو مدرِّب مشهور متمكِّن، أو رجل سياسة، أو اقتصاد، فيوعزون إليك ولوج المهالك، ويزيِّنون لك أسوأ المسالك.

وأنت تقول في نفسك: هؤلاء ليسوا موسوسين ولا هذه وَسوسة، بل قد ارتفعت أصواتهم، وعَلَتْ ثقتهم بأنفسهم وبما يقولون لأنهم على حقٍّ!

والحقيقة أنهم أشدُّ وَسوسةً وأخطر من كلِّ شيطان من الإنس والجانِّ.

الآية تدلُّ اتفاقًا على جهود يبذلها الوسواس الخَنَّاس في صدور النَّاس، وعلى أن المُوسوسين يهدفون إلى أن يملؤوا حياتنا بالشَّرِّ بتلك الجهود الضَّخمة التي يبذلونها من خلال الوَسوسة.

فقد أدركنا البصيرة التي تبيِّن المقصودين بقول ربِّنا ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، ولكن السُّؤال: لماذا جاءت هذه الآية مع أنّ المعنى الذي تذكره واضح، فالمُوسوس في صدور النَّاس قد ينتمي إلى الجِنِّ، وقد ينتمي إلى الإنس؟

الجواب: هذه الآية في موضعها الذي نحتاج إليه في البيان، بل تشتدُّ حاجتنا إليه، وسبب الْحَاجَةِ الملِحَّة إِلَى البيان الذي تضمَّنته هذه الآية أشار إليه الطَّاهر بن عاشور رحمه الله، وهو خَفَاءُ وَسوسة الإنس للإنس؛ لِأَنَّ الْأُمَمَ اعْتَادُوا أَنْ يُحَذِّرَهُمُ الْمُصْلِحُونَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيطان، وَرُبَّمَا لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ مِنَ الْوَسْوَاسِ ما هو شَرٌّ مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيَاطِينِ، وَهُوَ وَسْوَسَةُ أَهْلِ نَوْعِهِمْ، وَهُوَ أَشَدُّ خَطَرًا وَهُمْ بِالتَّعَوُّذِ مِنْهُمْ أَجْدَرُ؛ لِأَنَّهُمْ منهم أقرب، وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَخْطَرُ، وَأَنَّهُمْ فِي وَسَائِلِ الضُّرِّ أَدْخَلُ وَأَقْدَر[1].

ويمكن أن تضيف: وكذلك استهانة أكثر الإنس بوَسوسة الجِنِّ، فكان لا بدَّ من إظهار النَّوعَين معًا في الآية، وهنا تبهرك أنوار القرآن المجيد بإشراقها.

وقد تقول بعد هذا: هذه الصِّفة ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، تحدِّد جنس الوسواس.. وتكشف عن مفاجأةٍ بسبب أنفسنا الغافلة: الوَسواس ينتمي للجنِّ كما ينتمي للإنس، فلماذا ذكر الله ﷻ أنه ينتمي إلى الثَّقَلين مع أن المسألة واضحة؟

الجواب: أما انتماؤه للجِنِّ، فلخفائهم، فقد قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فالجِنُّ سمُّوا جنًّا؛ لاجتنانهم أي: لخفائهم واستتارهم، ويقال: جَنَّهُ اللَّيل وأجنَّه: إذا ستره، وأجنَّ الميِّت: إذا ستره في الأرض[2]، قال:

ولا تَبْكِ مَيتًا بعد مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عليٌّ وعبَّاسٌ وآلُ أبي بَكْرِ[3]

يريد النَّبيَّ ﷺ، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أُمِّه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، ومنه المِجَنُّ لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجَنَّة

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) انظر: مفردات الراغب (٩٨، ٩٩)، المعجم الاشتقاقي (١/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) البيت منسوب لعبد الله بن أراكة الثقفي. ينظر: الحماسة البصرية (١/ ٢٧٧).

لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه الجُنَّة- بالضم لما يقي الإنسان من السِّهام والسِّلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله[1].

وقد تتساءل: كيف تحدث وَسْوَسة الجِنِّ للإنسان؟ وما الحكمة من الاستعاذة من شيطان الجنِّ والإنس معًا؟ مع أن المتبادر إلى الذِّهن أن الذي يوسوس هو شيطان الجن؟

الجواب: إنها تحدث، ويشعر الإنسان بآثارها في واقعه وحياته، وإن كان لا يدركها من النَّاحية الماديَّة.

وأما انتماؤه للإنس؛ فلأننا عندما نستعيذ من الشَّيطان نحصر فكرنا في الشَّيطان الجِنِّيِّ، وننسى تأثير الشَّيطان الإنسيِّ، مع أن تأثيره قد يكون الأشدَّ ضراوةً، وقد يكون الشَّيطان الجِنِّيُّ مجرَّد عامل مساعد أو مُحَفِّزٍ ليبدع الشَّيطان الإنسيُّ في إجرامه، وعبثه بأفكار من يقوم بالوَسوسة لهم.

ولذا فإن شياطين الإنس قد يبتدعون من وسائل الإفساد وطرق الغواية عن طريق الرَّشاد، ما يعجب له ويعجز عنه شياطين الجِنِّ، ويجعلهم في مقام الطَّالب المذهول، والمتابع الذي يرى ما لا تصدقه العقول، وليست هذه مبالغة؛ فإنَّ هذا الزَّمان مليءٌ بشواهد تَفَوُّق شياطين الإنس على إخوانهم من الجِنِّ، وقد غزوا بشرورهم كلَّ بيت ومنزل، وزعزعوا أو دمَّروا كُلَّ حصن ومعقل، بأساليب جذَّابةٍ برَّاقةٍ، تجعل الباطل حقًّا والحقَّ باطلًا.

وفي سياق حديثنا عن تنافس شياطين وتَفَوُّق بعضهم على بعض في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه جابر رضي الله عنه: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً،

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٤)، مفردات الراغب (٩٨، ٩٩)، المعجم الاشتقاقي (١/ ٣٣٨، ٣٣٩).

أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ!»[1].

الشَّيطان الإنسيُّ، مع أنَّ تأثيره قد يكون الأشدَّ ضراوةً، وقد يكون الشَّيطان الجنِّيُّ مجرَّد عامل مساعد أو محفِّز ليبدع الشَّيطان الإنسيُّ في إجرامه، وعبثه بأفكار من يقوم بالوسوسة لهم.

ولعلك تسأل: لماذا قدَّم ﴿الْجِنَّةِ﴾ على ﴿النَّاسِ﴾ هنا؟

الجواب: لأن الجِنَّ أصل الوَسوسة، وهم أشدُّ خفاءً من دهاة الموسوسين من الإنس، والكلام في سورة النَّاس عن الخَنَّاس أي: الذي يختفي، فقدَّم الجنَّ، أما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فقدَّم الإنس؛ لأن تأثير شياطين الإنس أكثر، حيث يتمكَّنون من الاتصال الماديِّ المباشر بالإنس، ولخفاء خبثهم على بقية الإنس؛ لأنهم من جنسهم، ولأنَّهم المنفذون لوسوسات الجنِّ، فكلٌّ من هذين النَّوعين الموسوسين له نقاط قُوَّةٍ يتفوَّق بها على صاحبها: فنقطة قُوَّة الجِنِّيِّ عدم رؤيتك له، ونقطة قُوَّة الإنسيِّ عدم حذرك منه[2]، ولذا قال ابن زيد رحمه الله في قوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: «الخَنَّاس الذي يوسوس مرَّة، ويخنس مرَّة من الجنِّ والإنس، وكان يقال: شيطان الإنس أشدُّ على الناس من شيطان الجنِّ، شيطان الجنِّ يوسوس ولا تراه، وهذا يُعاينك معاينة»[3].

---

(١) مسلم (٢٨١٣).

(٢) على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي (١/ ٥٧).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٠).

يتمثَّل الوَسواس الإنسيُّ في رفيق السُّوء الذي يتلاعب بعواطفك ومشاعرك وأسرارك ليصبَّ فيه أكبر جرعة خفيَّةٍ من الشَّرِّ دون أن تشعر بشيء من ذلك، ثم لا تفيق إلا بعد أن تقع في الخسارة، فإن كانت الخسارة دنيويَّة ظهر عليك التَّألُّم والتندُّم، وإن كانت الخسارة دينيَّة ربما خفَّ انتباهك حتى ينبهك الموت وما بعده، وعندها تعلن متحسِّرًا يوم القيامة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

يتظاهر الوَسواسُ الإنسيُّ بأنه المستشار الحنون، والصَّاحب الصَّادق، والحريص الأمين، وربما كان النَّمَّام الواشي، والمفسد الذي يرفع عنك التَّقارير لرؤسائه من شياطين الإنس والجِنِّ ممن يفوقونه في الرُّتبة.

احترس، وتيقّظ فقد نبّهك الله ﷻ إلى ﴿شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

يتَمَثَّلُ الوَسواسُ الإنسيُّ في رفيق السُّوء الذي يتلاعب بعواطفك ومشاعرك وأسرارك ليصبَّ فيه أكبر جرعة خفيَّةٍ من الشَّرِّ دون أن تشعر بشيء من ذلك ثم لا تفيق إلا بعد أن تقع في الخسارة.

يجتمع الوسواس الخَنَّاس من الإنس مع أمثاله، وربما يُكَوِّنُون جيشًا جرَّارًا من الإعلاميين وشيوخ السُّوء، وتجَّار المخدَّرات.. يجتمعون عليك وعلى المجتمع، ويجعلون وَسواسهم أخفى من دبيب النَّمل، وربَّما أخفى من الوَسواس الجِنِّيِّ، فاحترس وتذكَّر سورة النَّاس.. إنها الحصن المضيء لقلبك وعقلك أمام هذه المعركة الهائلة التي يجب أن تعلم أنها تمتدُّ طوال حياتك.

سورة النَّاس.. الحصن الذي تلجأ فيه إلى ربِّ النّاس ومَلِكهم وإلههم ليحميك من الشَّرِّ الهائل الذي يسلِّطه عليك الجِنَّة، ويُجنِّدُون له عملاءهم من الإنس.. لكنَّك تجد عند ربِّ النَّاس، وملِكهم، وإلههم الحصن الأعظم، والقوَّة الأكبر، والحماية الأصدق، والرِّعاية الأكمل.

وحيث إنَّ شرَّ الوَسوسة يتعدَّى المدى المباشر إلى غير المباشر في تسليط شياطين الجِنِّ لشياطين الإنس على الإنسان، فهذا المدى من الوَسوسة يتطلَّب ما يقابله من التَّحصين المتعدِّي والحذر منه.

يجتمع الوَسواس الخَنَّاس من الإنس مع أمثاله من الجِنِّ، وربما يُكَوِّنُون جيشًا جرَّارًا من الإعلاميين وشيوخ السُّوء وتجَّار المخدرات.. يجتمعون عليك وعلى المجتمع، ويجعلون وَسْواسهم أخفى من دبيب النَّمل، وربَّما أخفى من الوَسواس الجِنِّيِّ، فاحترس وتذكَّر سورة النّاس.

وربما تتساءل: لماذا تكرَّرَتْ كلمة ﴿النَّاسِ﴾ خمس مرَّات في سورة قصيرة لم تتجاوز ستَّ آياتٍ قصيرة؟

الجواب:

١) لشدَّة اهتمام خالقهم به وتحبُّبه للإنسانيَّة، ورعايته لمصالحهم.

٢) لإظهار خطر المكان الذي يوسوس فيه الوَسواس لهم.

٣) أراد أن يبيِّن أحد صِنْفَيْ هذا الوسواس، وينبِّه إلى أنه قد يكون إنسيًّا.

وهذا الإظهار مع إمكان الإضمار يدل على شدّة الاهتمام والرّعاية والعناية بالشيء المظهَر، ففي هذه الآيات رأينا الاهتمام بالإنسانيَّة، والإرادة الإلهيَّة في حمايتهم من الشُّرور التي تحيط بهم، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، فذكر النَّاس مرَّتين بعد أوَّل موضع؛ ليبيِّن تحبُّبه للإنسانيَّة، ورعايته لمصالحهم، فالدِّين لأجلهم، لا لحاجة الله -تعالى وتقدَّس-، وهذا الاهتمام يشبه الاهتمام بذِكْر "الكتاب" في قوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وأما تكريره المرَّة الثالثة بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٥]، فلأجل بُعد كلمة النَّاس؛ إذ ذكرها في الآية التي قبل سابقتها. ليؤكِّد شدَّة حرص ملكهم على نجاتهم وسلامة أهمِّ موضع فيهم، وانتصارهم في أعظم معركة يخوضونها ضدَّ أشدِّ وأخطر الأعداء ضراوةً وفتكًا.

وأما تكريره المرَّة الرَّابعة بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٦]؛ فلأنه -جلَّ مجده- أراد أن يبيِّن أحد صِنْفَيْ هذا الوَسواس، وينبِّه إلى أنه قد يكون إنسيًّا يُوسوس في صدر إنسيٍّ، فلا بدَّ من الحذر، وتوقِّي الخطر، وعدم إرخاء الدِّفاع الإنسانيِّ، بل ينبغي أن ينشر كلَّ وسائل الدِّفاع أمام الموسوسين.

تَكْرَار كلمة ﴿النَّاس﴾ في هذه السُّورة، وإظهارها مع إمكان إضمارها يدلُّ على شدَّة الاهتمام والرِّعاية والعناية بالشيء المظهَر، ففي هذه الآيات رأينا الاهتمام بالإنسانيَّة، والإرادة الإلهيَّة في حمايتهم من الشُّرور التي تحيط بهم.

لماذا جاء ترتيب خواص هذا الشَّرِّ بهذه الطَّريقة في الآيات الثلاث ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

الجواب: تلاحظ في ترتيب هذه الصِّفات تميُّزًا عظيمًا:

فقد حدَّد الله ﷻ أولًا: صفة صاحب هذا الشَّرِّ، فقال: ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

ثم حدَّد ثانيًا: عمله، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

ثم حدَّد ثالثًا: ماهيته فقال: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

«وهذا التَّرتيب يثير في الحِسِّ اليقظة والتَّلفُّت والانتباه لتبيِّن حقيقة الوسواس الخَنَّاس، بعد إطلاق صفته في أوَّل الكلام».

معالمُ التَّعريفِ بالسِّلاح الشَّيطانيِّ الخطير الضَّعيف {الوَسوسة}

المَعْلم الأول

ذَكَرَ اللهُ عز وجل محلَّ وسوسة الشَّيطان وهو الصُّدور، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بخطورة هذا المكان وأنه يتنقل فيه بحريَّة.

المَعْلم الثاني

تمتدُّ الوسوسة لتشمل كلَّ زمانٍ ومكان، فلا يُحجب الوسواس عن هذه الوسوسة حتى في الصَّلاة.

المَعْلم الثالث

تكثر الشَّياطين الموسوسة في صدور الناس حتى يخصِّص إبليس شياطين لأهمِّ الأعمال الصَّالحة، فربَّما يكون ذلك لأنهم أصبحوا ذوي خبرة.

المَعْلم الرابع

ينوِّع الوَسواس الأفكارَ التي يطرحها عليك، فهو يتفنَّن في إغواء كلِّ إنسان على حسبه.

المَعْلم الخامس

الوسوسة سلاح ضعيف؛ إذ ليس فيه إلزام ولا سيطرة، ولكنه فتَّاك على المدى المتوسط والطَّويل عندما يتكرَّر.

المَعْلم السادس

الخَنْس جزء أساسيٌّ من عمل الوسوسة، ويستهدف الإيقاع بالغفلة والقنوط، فلا تتساهل في دفاعاتك.

المَعْلم السابع

الأهداف التي يحاول الشَّيطان نقل الإنسان إليها كثيرة.

معالمُ التَّعريفِ بالسِّلاح الشَّيطانيِّ الخطيرالضَّعيف (الوَسوسة):

المَعْلَمُ الأَوَّلُ: **ذَكَرَ اللهُ ﷻ محلَّ وَسوسة الشَّيطان وهو الصُّدور**، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بخطورة هذا المكان وأنه يتنقل فيه بحرِّيَّة، والمراد أنه ينفث في صدر الإنسان متى شاء.

المَعْلَمُ الثَّاني: **الشمول**: تمتدُّ الوسوسة لتشمل كلَّ زمانٍ ومكان، فلا يُحجب الوسواس عن هذه الوسوسة حتى في الصَّلاة.

المَعْلَمُ الثَّالِث: **الكَثْرَةُ والخِبْرة**: تكثر الشياطين المُوسوسة في صدور النَّاس حتى يخصِّص إبليس شياطين لأهمِّ الأعمال الصَّالحة، فربَّما يكون ذلك لأنَّهم أصبحوا ذوي خبرة.

المَعْلَمُ الرابع: **التَّنْويعُ والتَّفَنُّن**: ينوّع الوَسواس الأفكار التي يطرحها عليك، فهو يتفنَّنُ في إغواء كلِّ إنسان على حسبه.

المَعْلَمُ الخامس: **الوَسوسة سلاح ضعيف**؛ إذ ليس فيه إلزام ولا سيطرة، ولكنه فتَّاك على المدى المتوسِّط والطَّويل عندما يتكرَّر.

المَعْلَمُ السادس: **الخَنْس جُزءٌ أساسيٌّ من عمل الوَسوسة**، ويستهدف الإيقاع بالغفلة والقنوط، فلا تتساهل في دفاعاتك.

المَعْلَمُ السابع: **الأهداف التي يحاول الشَّيطان نقل الإنسان إليها كثيرة**.

المَعْلَمُ الأوَّل: ذَكَرَ اللهُ ﷻ محلَّ وسوسة الشَّيطان وهو الصُّدور، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بخطورة هذا المكان، وأنه يتنقَّل فيه بحرِّيَّة، والمراد أنه ينفث في صدر الإنسان متى شاء.

كما سبق في قول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِن ابن آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا»(١).

قد تتساءل: ألا نأخذ استراحةً لنضع أسلحتنا ونترك حذرنا في بعض الأوقات مثل وقت الصَّلاة أو في شهر رمضان؟

الجواب: هنا يأتي المَعْلَمُ الثَّاني:

المَعْلَمُ الثَّاني: الشمول: تمتدُّ الوَسوسة لتشمل كلَّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يُحجب الوَسواس عن هذه الوَسوسة حتى في الصَّلاة.

بل هو يزداد اجتهادًا ليمنعك من الاستفادة من أعظم أوقاتك، كما في الحديث السَّابق حول وَسوسة الشَّيطان للإنسان في الصَّلاة.

وقد تتعجب، فتتساءل: هل من المعقول أن يكون عند الشياطين أعدادٌ كثيرةٌ لتوسوس في صدور كلِّ الناس؟

الجواب: هنا يأتي المعلم الثالث:

المَعْلَمُ الثالث: الكَثْرَةُ والخِبْرَةُ: تكثر الشياطين الموسوسة في صدور الناس حتى يخصِّصَ إبليس شياطين لأهمِّ الأعمال الصالحة، فربَّما يكون ذلك لأنهم أصبحوا ذَوي خبرة.

يخصِّص إبليس لبعض الأعمال الفاضلة شياطين متخصِّصَةً، كأنهم يكونون ذوي خبرة كافيةٍ في تحقيق أهدافه في تلك الأعمال الفاضلة، مثل الصَّلاة، فإنها أكثر فِعْلٍ إنسانيٍّ ربانيٍّ

(١) البخاري (٦٢١٩).

يحاول الشَّيطان أن يشغل الناس عنه، وربَّما يعود ذلك إلى حسده القديم إذ سجد الملائكة كلُّهم أجمعون إلا هو، ولذلك خصَّصَ شيطانًا بعينه من أجل إبطال مفعول الصَّلاة وحَرْفِ مسار أهدافها، أو حتى تركها والبعد عنها، فعن عُثْمَانَ بْن أَبِي الْعَاصِ ﷺ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الشَّيطان قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزِبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا». قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عنِّي[1].

ومن شرور الشَّيطان المشاركة للناس في طعامهم وشرابهم ومنامهم مشاركة اللصِّ المجرم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيطان: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيطان: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»[2].

ومِن تحرُّكَاته الماكرة الخَفيَّة التي تصيبنا الغفلة عن سببها الحقيقيِّ (منع الإنسان من شرفه)؛ فإن شرفه قيام الليل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيطان عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ ﷻ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»[3].

---

(١) مسلم (٢٢٠٣).

(٢) مسلم (٢٠١٨).

(٣) البخاري (١١٤٢).

وواضح أن العُقَد تزول بمجاهدة الإنسان لنفسه، وقيامه بأمر ربه ﷻ، فيظلُّ كيد الشَّيطان ضعيفًا إلا لمن استسلم له.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ [ابن مسعود] ﷺ، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ؛ مَا قَامَ إِلَى الصَّلاة، فَقَالَ: «بَالَ الشَّيطان فِي أُذُنِهِ»(١).

الصَّلاة أكثر فِعْلٍ إنسانيٍّ ربانيٍّ يحاول الشَّيطان أن يشغل النَّاس عنه، وربَّما يعود ذلك إلى حسده القديم إذ سجد الملائكة كلُّهم أجمعون إلا هو، ولذلك خصَّصَ شيطانًا بعينه من أجل إبطال مفعول الصَّلاة وحَرْفِ مسار أهدافها، أو حتى تركها والبعد عنها.

وهو يرصد المؤمن ويقعد له في كلِّ طريق، بل يحاصره فلا يخرج عن وَسوسته حيث يقول الله ﷻ مبينًا خطَّته في محاصرة الإنسان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، ولا يكتفي بذلك حتَّى يقعد للإنسان في كلِّ طريق أو إرادة، ويصف النَّبيُّ ﷺ هذا الرَّصد الشَّيطانيَّ الخطير فيقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، وَآبَاءِ أَبِيكَ؟» قَالَ: «فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ(٢)» قَالَ: «فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ» قَالَ: «ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: هُوَ

(١) البخاري (١١٤٤).

(٢) الطِّوَل بِكَسْر الطَّاء وَفتح الْوَاو: الْحَبل الَّذِي يشد أحد طَرَفَيْهِ فِي وتد والطرف الآخر فِي يَد الْفرس، وَهَذَا من كَلَام الشَّيطان ومقصوده أَن الْمُهَاجر يصير كالمقيد فِي بِلَاد الغربة لَا يَدُور إلا فِي بَيته، وَلَا يخالطه إلا بعض معارفه، فَهُوَ كالفرس فِي طِوَل

جَهْدُ النَّفْسِ، وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقَسَّمُ الْمَالُ» قَالَ: «فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(١).

وتتساءل: فما الأفكار التي يوسوس حولها شياطين الإنس والجن؟

الجواب: هنا يأتي المعلم الرابع:

المَعْلم الرَّابع: التَّنويع والتَّفنُّن: ينوِّع الوَسواسُ الأفكارَ التي يطرحها عليك، فهو يتفنَّن في إغواء كلِّ إنسان على حسبه:

فمن النَّاس من يحاول أن يمكر به حتى يُلحِد فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا، خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ» (٢)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُونَ يَسْأَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؟»، قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَوَاللهِ، إِنِّي لَجَالِسٌ يَوْمًا إِذْ قَالَ لِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ: هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ﷻ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ

لَا يَدُور وَلَا يرْعَى إلا بِقَدرِهِ، بِخِلَاف أهل الْبِلَاد فِي بِلَادهمْ فَإِنَّهُم مبسوطون لَا ضيق عَلَيْهِم. حاشية السندي على سنن النسائي (٦/ ٢٢).

(١) أحمد (١٥٩٥٨)، قال شعيب الأرناؤوط: « إسناده قوي» ، وقال الألباني: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، وفي بعضهم كلام لا يضر». الصحيحة (٢٩٧٩).

(٢) مسلم (١٣٤).

ﷺ: فَجَعَلْتُ أُصْبُعَيَّ فِي أُذُنَيَّ، ثُمَّ صِحْتُ، فَقُلْتُ: «صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: هَذَا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا: ﴿اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيطان»، وَقَالَ عَمْرٌو: «ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيطان»(٢).

وهذا على مستوى الوسوسة في العقيدة، ومداخل الشَّيطان عديدة: فتَرِدُ في العبادات والعلم، ومع جميع الفئات: السَّلاطين والزُّهَّاد والعوام والعلماء وغيرهم.

و «دلَّت هذه الأحاديث الصَّحيحة على أنه يجب على من وَسوس إليه الشَّيطان بقوله: من خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث المذكورة، وخلاصتها أن يقول: آمنت بالله ورسله، الله أحد، الله الصَّمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. ثم يتفل عن يساره ثلاثا، ويستعيذ بالله من الشَّيطان، ثم ينتهي عن الانسياق مع الوَسوسة... وهذا التَّعليم النَّبويُّ الكريم أنفع وأقطع للوَسوسة من المجادلة العقليَّة في هذه القضية، فإنَّ المجادلة قلَّما تنفع في مثلها»(٣).

قد تسأل: ولماذا نخاف من الوَسوسة، وهي مجرَّد أفكار تطرح في الصَّدر ويمكننا أن نزيلها من أذهاننا بيُسر؟

الجواب: هنا يأتي:

---

(١) أحمد (٩٠٢٧)، قال شعيب الأرناؤوط: «صحيح، وهذا إسناد حسن».

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١٠٤٢٢)، وذكره الألباني في الصحيحة (١١٨).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢٣٦).

المَعْلَمُ الخَامس: الوَسوسة سلاحٌ ضعيف؛ إذ ليس فيه إلزامٌ ولا سيطرةٌ، ولكنّه فتّاك على المدى المتوسط والطَّويل عندما يتكَّرر:

أما أنه ضعيف فيبين ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ويصوِّر ذلك حديث عبد الله بن شدَّاد عن ابن عبَّاس ﷺ قال: جاء رجل إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لَأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»(١). فإن قاومها الإنسان ورجعت إليه وظلَّ يحاربها، فلا يضرُّه أن ترجع إليه الوسوسة لأن رجوعها مع بقاء مقاومته يدلّ على صراحة إيمانه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ» (٢).

تمتدُّ الوسوسة الشَّيطانية في زمانها؛ إذ يكرِّرها حتى يظنَّ الإنسان أنها خرجت عن حدِّ الوسوسة إلى الفعل مع أن الشَّيطان لا قدرة له على ذلك، ويبيَّن ذلك أن الله ﷻ أسند وقوع الزَّلل والإزالة للشَّيطان في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، وفي قراءة حمزة ﷺ: ﴿فَأَزَالهما﴾(٣)، مع أنه لم يزد على الوَسوسة.

كما يمتدُّ التَّأثير المدمِّر للوَسوسة إلى صنع معالم واضحة في الفسق والفساد والجريمة، وهذه المعالم تعبِّر عن خطواته التي يَقْتِفيها المجرمون في الأرض، وقال الله ﷻ عنها: ﴿وَلَا

(١) أحمد (٢٠٩٧)، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الوادعي في الجامع الصحيح (٣٢٦).

(٢) مسلم (١٣٢).

(٣) انظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١).

تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٨، ١٦٩]، فلا تعجب عندما تقرأ أنه في أسبوع واحد فقط، بلغ عدد قتلى عنف الأسلحة النَّاريَّة في الولايات المتحدة الأمريكيَّة (٤٣٠) قتيلًا، وأدَّت عمليات إطلاق النار أيضًا في الفترة بين السبت ١٧ تموز/ يوليو والجمعة ٢٣ من الشهر ذاته إلى إصابة ألف وسبعة أشخاص، ويعني ذلك أنَّ ضَحيَّة واحدة على الأقلِّ بين قتيل أو جريح يسقط كلَّ سبع دقائق(١).

ويوضِّح لنا النَّبيُّ ﷺ كيف يتلاعب الشَّيطان بوجود هذه الأدوات بين أيدي الإنسان، فعن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»(٢)، وفي رواية تبيِّن أثر الوَسوسة الشَّيطانيَّة: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيطان يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»(٣).

ولوَسوسته أثرٌ كبيرٌ قد يكون مُدمِّرًا، فانظر كيف أشغل فتى موسى عليه السلام عن الانتباه للمهمَّة الرئيسة التي جاء لها، وهي التنبيه على مكان الالتقاء مع الخضر، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

تمتدُّ الوسوسةُ الشَّيطانيَّةُ في زمانها؛ إذ يكرِّرها حتى يظنَّ الإنسان أنها خرجت عن حدِّ الوسوسة إلى الفعل مع أن الشَّيطان لا قدرة له على ذلك.

وعندها تتساءل: ما السَّبيل الأمثل للخروج من شباك الوَسوسة الشَّيطانيَّة المُدَمِّرة؟

---

(١) ينظر: https://arabi21.com/story/1374548/

(٢) مسلم (٢٦١٦).

(٣) مسلم (٢٦١٧).

الجواب: هنا يأتي:

المَعْلَمُ السادس: الخَنْس جُزءٌ أساسيٌّ من عمل الوَسوسة، ويستهدف الإيقاع بالغفلة والقنوط، فلا تتساهل في دفاعاتك:

اتَّخِذِ القرار الفوريَّ بمحاربة الوَسوسة، واحذر من الاطمئنان لحظةً إلى هذا الوَسواس سواء أكان من الجِنَّة أم كان من الناس، فقد جعل أحواله كلَّها شرًّا، فقد يهدأ ولا تراه يوسوس، وما ذلك إلّا لأنه خنس في انتظار لحظة غفلتك ليميل عليك ميلةً واحدةً بوسوسته، فيوسوس لك بما يدمِّر حياتك عندما تبتعد عن ربك ﷻ في قراراتك:

فأوَّل ذلك أن يوسوس لك بالإكثار من المباحات، لتكون فخًّا للوقوع في ترك المستحبَّات وفعل المكروهات، فتستدلُّ على سَرَفِك وتَرَفِك، وانغماسك في المباح، وانشغالك به عن سنن الفلاح والإصلاح بقول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وهو استدلال صحيح لكنَّه في غير موضعه.

وفي الغالب فإنَّ الوَسواس هنا يتركك، ويخنس مدَّةً.. انتبه عندها، واستيقظ، واذكر سورة النَّاس، وتذكر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فإن لم تفعل وأكثرت من المستحبَّات شنَّ عليك غارته الثَّانية، فوَسْوَس لك التلذُّذ بالمباحات والإكثار منها إلى حدِّ أن يجرَّك إلى صغائر المحرَّمات، فتتساهل فيها، وحينها يخنس شيئًا ما، وتتولَّى نفسك الأمارة بالسُّوء إكمال المسيرة الشَّيطانيَّة، فتنسى خطر الصَّغائر، وأنها مثل الحطب الذي يتكَّون من صغار الأعواد، لكنَّه يوشك أن يتحوَّل إلى نارٍ كبيرة تحرقك، كما قال رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ،

فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»[1].

احترس من التَّساهل، وعُدْ إلى دفاعاتك ضِدَّ الوَسواس الجِنِّي والإنسيِّ، واعمل على تقويتها، ولا تتساهل في الصَّغائر، واسْتَبْقِ باب التوبة منها.

فإن لم تفعل جرَّك إلى فِعْل كبيرةٍ من الكبائر، وعندما تجترحها تُلهبك سياط النَّدامة، وتشويك نيران القلق، وتنزل دموعك قروح الحزن والخوف بسبب هذه الفعلة، ويخنس عنك الوَسواس، فيتركك تأخذ وقتك في الحزن والتوبة الظاهريّة.

ثم يعود إليك، فيُزيّن لك تلك الكبيرة جسديَّة كانت أم ماليَّة أم فكريَّة، فيفخِّم لك فوائد تلك الكبائر في حياتك، سواء أكانت من الشَّهوات الغضبيَّة، أم الجسديَّة، أم الماليَّة، أم النَّفسيَّة كالتَّرَؤُس، ويزخرفها الزَّخرفة الوسيمة المتلألئة، ويملأ حياتك بالتَّهوين من عقوباتها الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ويُحَسِّن لك تَكْرَارها، ويوقِّت لك وَقتًا تتوهَّم فيه أنَّك يمكن أن تتركها، وتكفِّر عنها بأنواع من الكفَّارات.

وهنا تبدأ باعتيادها، ويصعب عليك الفكاك من شِباكها المدمِّرة لقلبك وحياتك..

لقد وقعتَ حينها في مرحلةٍ متقدِّمة جدًّا نحو الكفر والإلحاد، وأعيذ نفسي وإياك منها.. فلا تيأس وتُبْ، وأَعْلِنْ حَرْبَك على الوَسْواس ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أحمد (٣٨١٨)، وحسنه الأرناؤوط لغيره، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٦٨٧).

فإن لم تفعل قَلَبَ لك الوَسواس الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا، وجعلك من الدُّعاة على أبواب جهنَّم، فإمَّا أن يُدْخِلك في الكفر، ويُسْقِطك في حُفرة الإلحاد، وإمَّا أن يجعلك تَسْتَمْسِك ظاهريًّا بصُورٍ من الإيمان، لكنك تصبح في الوقت ذاته من أكبر دعاة الشَّيطان.

تتولَّى نفسُك الأمارة بالسُّوء إكمال المسيرة الشَّيطانيَّة، فتنسى خطر الصَّغائر، وأنها مثل الحطب الذي يتكَّون من صغار الأعواد، لكنَّه يوشك أن يتحوَّل إلى نار كبيرة تُحْرِقك.

هنا ربَّما تنتفض، وتقول: وهل يتمكَّن الوَسواس من أن يوصل أحدًا من الصَّالحين إلى هذا الحدِّ؟

الجواب: تَذَكَّر أنَّ الله ﷻ وصفه هذه الأوصاف الخطيرة: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٤، ٥]، ووصف تعاونه مع صاحبه الإنسيِّ في الوَسوسة لك، فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٦].

فمن أساليبه في التّلاعُب بفكرك وقلبك لتتَّبع خطواته، وتتمثَّل في الآتي:

الخاطرةُ، فالفكرةُ، يليها التَّخطيط، ثم الهَمُّ، يتبعه العزم، وفي النِّهاية الفعل.

إنّه يُزَيِّن للقلب اقتحام حِمى الذَّنب **بأن تلوح له الخَطْرة.. خَطْرة المعصيَّة**، فيدفعها أولًا، فيخنس، ثم يكرِّر صورتها مرَّاتٍ حتى يُفكِّر بها الإنسان.. انتبه.. ادفعها قبل فوات الأوان؛ إن لم تدفعها أصبحت فكرةً.. ثم يخنس، ثم يعود سريعًا:

احترس! اقمع الفكرة قبل فوات الأوان بكثرة الانشغال بالأعمال الصَّالحات، والصَّبر مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وَجْهَهُ..

فإن لم تقمع الفكرة عاد الوَسواس إليك فساعدك على تحويلها إلى خُطَّةٍ قابلةٍ للتَّنفيذ، فاقْمَعْهُ واقْمَعْهَا.. لا تتأخَّر.

إن لم تفعل أصبحت الخطَّة همًّا، ثم عزمًا مصمِّمًا، لا يَحُولُ بينك وبينه إلا الزَّمان والمكان المناسبان.. احترس! يوشك أن تقع في أسوأ أفعالك.. ابتعد.. إن لم تفعل أصبح العزم المُصَمِّمُ فعلًا تُوجِدُه في الواقع بيديك الخاطئتين.. والآن عُد نادمًا، وأقلِع جازمًا، وإلا تفعل أصبح الفعل الخاطئ الواحد عادةً ونظامًا دائمًا، فحينها تكون قد بِعْتَ نفسك للشيطان، والله المستعان، ويبيِّن ابنُ رسلان ذلك، فيقول:

فَدُونَكَ الصَّلاحَ أو فَسَادًا ... أَوْ سُخْطًا اوْ تَقْرِيبًا اوْ إِبْعَادًا
وزِنْ بحُكْمِ الشَّرْعِ كلَّ خاطرِ ... فإنْ يَكُنْ مَأْمُورَه فَبَادِرِ
ولا تَخَفْ وَسوسةَ الشَّيطانِ ... فإنَّه أَمْرٌ من الرَّحْمنِ
فإنْ تَخَفْ وُقُوعَهُ منك على ... مَنْهِيٍّ وَصْفٍ مِثْلِ إِعْجَابٍ فَلَا
وإنْ يَكُ اسْتِغْفَارُنَا يَفْتَقِرُ ... لِمِثْلِهِ فإنَّنا نَسْتَغْفِرُ
فاعْمَلْ ودَاوِ العُجْبَ حيثُ يخطُرُ ... مُسْتَغْفِرًا فَإِنَّهُ يُكَفَّرُ
وإنْ يَكُنْ مِمَّا نُهيتَ عَنْهُ ... فهو من الشَّيطانِ فاحْذَرَنْهُ
فإن تَمِلْ إليه كُنْ مُسْتَغْفِرًا ... مِنْ ذَنْبِهِ عساه أن يُكَفَّرا
فيغفرُ الحديثَ للنَّفْس وما ... هَمَّ إذا لَمْ يَعْمَلَ اوْ تَكَلَّمَا
فجاهِد النَّفْسَ بأن لا تَفْعَلا ... فإنْ فَعَلَتْ تُبْ وأَقْلِعْ عَجِلَا
وحيثُ لا تُقْلِعُ لاسْتِلْذَاذِ ... أَوْ كَسِلٍ يدعوك باسْتِحْوَاذِ
فاذْكُرْ هُجُومَ هاذمِ اللَّذَّاتِ ... وفَجْأَةَ الزَّوالِ والفَوَاتِ

وأَعْـرِضِ الـتَّـوْبَـةَ وهْـيَ الـنَّـدَمُ ... عـلـى ارتـكـابِ مـا عـلـيـك يَـحْـرُمُ
تَـحْـقِـيـقُـهـا إِقْـلاعُـهُ فِي الـحَـالِ ... وَعَـزْمُ تَـرْكِ الـعَـوْدِ فِي اسْـتِـقْـبَـالِ
وإِنْ تَـعَـلَّـقَـتْ بـحَـقِّ آدَمِـي ... لا بُـدَّ مِـن تَـبْـرَئَـةٍ لِـلـذِّمَـمِ[1]

وهنا يأتي السؤال: ما أهمُّ الأهداف التي يحرص الشَّيطان على نقل الإنسان إليها؟

الجواب: هنا يأتي المَعْلَمُ السابع:

المَعْلَمُ السابع: الأهداف التي يحاول الشَّيطانُ نَقْلَ الإنسان إليها كثيرة:

ينقل لنا ابن مسعود ﷺ خبر انتشار الشَّياطين الكبير ليحضروا مع كل إنسان في أثناء تفكيره وقراراته وكلِّ حياته، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ -قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ- عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][2].

إِنْ لَمْ تَقْمَعِ الفكرةَ عاد الوَسواسُ إليك فساعدك على تحويلها إلى خطَّةٍ قابلةٍ للتَّنفيذ، فاقْمَعْهُ واقْمَعْهَا.. لا تتأخَّر.. فإن لم تفعل أصبحت الخطَّةُ هَمًّا، ثم عَزْمًا مصمِّمًا لا يَحُولُ بينك وبينه إلا الزَّمان والمكان المناسبان.. احترس!

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٣٤٠).

(٢) أحمد (٤١٤٢)، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن»، وحسنه أيضًا الألباني. مشكاة المصابيح (١٦٦).

الشُّرور الشَّيطانيَّة لاحتناك الذُّرِّيَّة الآدميَّة:

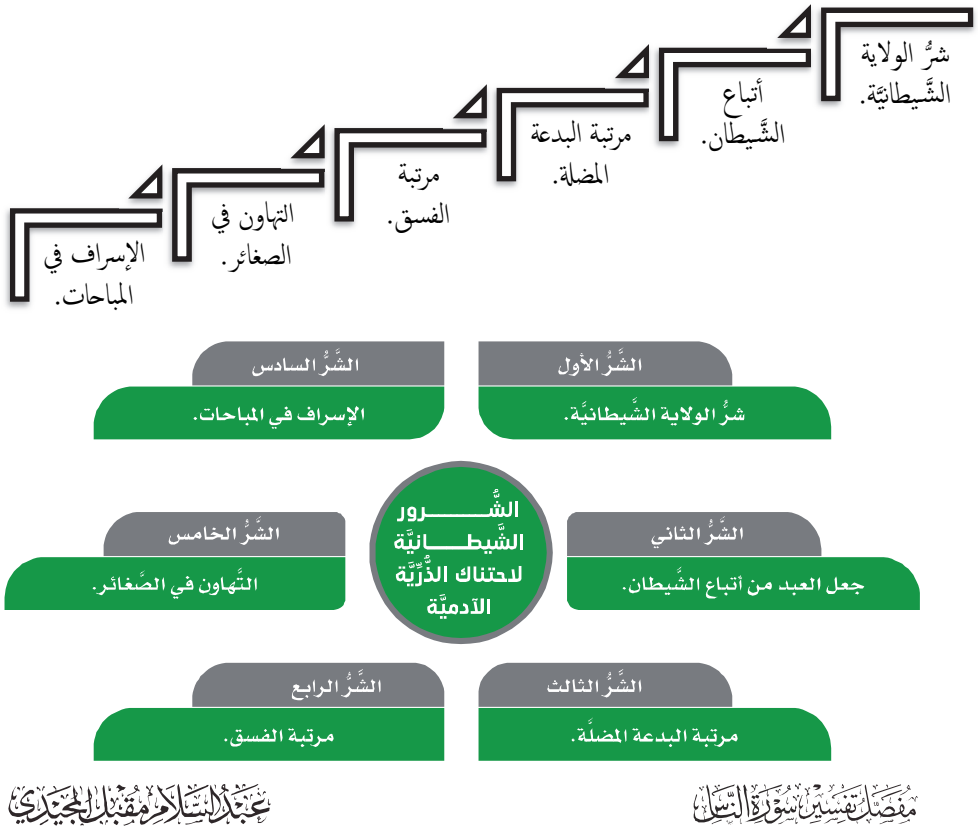

عندما يرسل إبليس جنوده من الجِنِّ والإنس ليحقِّقوا أهدافه في احْتِنَاكِ البشريَّة، فإنه يجعل الوَسوسة للنَّاس بالشُّرور على مراتب، وعندما تحاول معرفة أهمِّ الأهداف التي يحرص على تحقيقها [1] تجدها محصورةً في ستَّةٍ:

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٦٧٧)، فقد أشار إلى نحو ذلك، ولكنني سلكت أسلوبًا مغايرًا، فيه تفصيل أكبر.

الشَّرُّ الأوَّلُ: شَرُّ الولاية الشَّيطانيَّة بأن يجعل الوَسواسُ الإنسانَ من أولياء الشَّيطان الذين قال فيهم: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء: ٧٦]، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

هذه الولاية تعني استحواذ الشيطان على قلوبهم، فيكون الإنسان من الدُّعاة المتحمِّسين للكفر والشِّرك في الأرض، ويَصِيرُ مُبْدِعًا في نشر إجرام الشِّرك والكفر وجميع الأمراض الجاهليَّة في الأرض، ويفتخر بنشر الإجرام والفسق والفجور، وقد يكون هذا العضو في المحفل الشَّيطانيِّ ممن ينتمي إلى الحزب الثقافيِّ السياسيِّ لإبليس، فقد قال الله ﷻ عن هذا الحزب: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المُجَادلَة: ١٩].

وقد يكون من الجنود الطَّائعين بذِلَّةٍ وحماسةٍ لإبليس، فقد قال الله ﷻ عن هذا الصِّنف: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥﴾ [الشعراء: 95].

الشَّرُّ الثاني: إن لم يتحقَّق للوَسواس أن يجعل العبد من أوليائه، يحاول معه أن يجعله من أتباعه بأن يكتفي بأن يكون كافرًا، وقد حدَّثنا الله ﷻ عن هذا الصِّنف، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

الشَّرُّ الثالث: إن لم يتحقَّق ذلك نَقَلَهُ الوَسواس إلى مرتبة البدعة المُضِلَّة، حيث يتلاعب بدينه، ويخترع له طقوسًا يفتريها من عند نفسه، وينشر بين الناس أنها هي الدِّين، ولا تجد لها أثرًا في كتابٍ، ولا سُنَّةٍ، وهنا تجده يفتري على الله ﷻ الكذب في دينه، ويحرِّف القرآن عن مواضعه، وقال الله ﷻ عن هذا الصِّنف: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ

وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤]، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء: ٥٠].

الشَّرُّ الرابع: إن لم يتحقَّق ذلك بأن بقي الإنسان مسلمًا يخاف ربَّه ﷻ، اكتفى الوَسواس بأن يجعله في مرتبة الفسق دون البدعةِ المُضِلَّةِ، فيقارف المعاصي الكبائر، ويعتاد عليها متَّبعًا في ذلك خطوات الشَّيطان، وقال الله ﷻ عن هذه المرتبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨].

الشَّرُّ الخامس: إن لم يتحقَّق للوَسواس ذلك بأن كان الإنسان مسلمًا مستقيمًا حَبَّبَ إليه الصَّغائر، وجعله يتهاون فيها.

الشَّرُّ السَّادس: إن لم يتحقَّق للوَسْواس ذلك جعله يُسرف في المباحات، ويكثر من دوائر الحلال، لأنها من الطَّيِّبات، وتلاعَبَ له في فهمه لأولويات الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها، فيشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة، ويُفوِّتَ عليه ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضَّه عليه، ويحسِّنه له إذا تضمَّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلَّ من يتنبَّه لهذا من النَّاس، فإنَّه إذا رأى فيه داعيًا قويًّا ومحرِّكًا إلى نوع من الطَّاعة لا يشكُّ أنه طاعة، فإنَّه لا يكاد يقول: إن هذا الدَّاعِي من الشَّيطان، فإن الشَّيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الدَّاعِي من الله ﷻ، وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشَّيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصَّل بها إلى باب واحد من الشَّرِّ، وإما ليفوِّت بها خيرًا أعظم من تلك السَّبعين بابًا، وأجلَّ وأفضل، «فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب السِّتِّ وأعيي عليه: سلَّط عليه حزبه من الإنس والجنِّ بأنواع الأذى والتَّكفير والتَّضليل والتَّبديع، والتَّحذير منه، وقصد إخْمَالِهِ وإطْفَائه ليُشَوِّش عليه قَلْبَهُ، ويشغل بحربه

فِكْرَه، ولِيَمْنَعَ النَّاسَ من الانتفاع به، فيبقى سَعْيُه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجنِّ عليه، لا يفْتُر ولا يَنْأَى، فحينئذٍ يَلْبَسُ المؤمنُ لامَةَ الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله ﷻ».

يتلاعب الوَسواس في فَهْم العبد لأولويات الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها، فيشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، وقلَّ من يتنبَّه لهذا من الناس، فإنَّه لا يكاد يقول: إن هذا الدَّاعي من الشَّيطان فإن الشَّيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الدَّاعي من الله ﷻ.

كيف يستطيع الوسواس أن يجعل من المؤمن الصَّالح جنديًّا مخلصًا لإبليس يدعو إلى كل إجرام في الأرض؟

الجواب: يصوِّر لنا البقاعيُّ رحمه الله العمل الخطير للوسواس الخَنَّاس:

فيصوِّر لنا أنه يبدأ، فيوسوس بالذَّنب سِرًّا ليكون أجلى، ولا يزال يزيِّنُه ويثير الشَّهوة الدَّاعية إليه حتى يواقعه الإنسان. استعمال التَّحسين والتَّقبيح بما أفهمه.

فإذا وَاقَعَهُ وَسْوس لغيره أن فلانًا فعل كذا حتى يفضحه بذلك، فإذا افتضح ازداد جرأةً على أمثال ذلك لأنه يقول: قد وقع ما كنت أحذره من القالة، فلا يكون شيء غير الذي كان.

وشرُّه التحبيب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه حتى يشاكله في رذيلة الطَّبع وظلمة النَّفس.

فينشأ من ذلك شرورٌ لازمة ومتعدِّية أَضَرُّها الكِبرُ والإعجابُ اللذان أهلكا الشَّيطان، فيوقع الإنسان بها فيما أوقع نفسه فيه، وينشأ من الكبر الحقد والحسد يترشَّح منه بَطَر الحقِّ -وهو عدم قبوله، ومنه الكفر والفسوق والعصيان، وغمط الناس- وهو احتقارهم، المعلوم من قول الشَّيطان: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، ومنه تنشأ الاستهانة بأولياء الله تعالى، بترك

احترامهم، ومنع حقوقهم والاعتداء عليهم وظلمهم، ويترشَّح من الحقد الذي هو العداوة العظيمة إمساك الخير والإحسان، وبسط اللِّسان واليد بكلِّ سوء وإيذاء، ويترشَّح من الحسد إفساد ذات البين، كما يشير إليه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠]، والكذب والمخادعة، كما عرَّف به: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢]، ويترشَّح عن الإعجاب التسخُّط للقضاء والقدر، كما آذن به: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ومقابلة الأمر بالعلم بما أشعر به: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

واستعمال القياس في مقابلة النَّص بما هدى إليه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] الآية، واستعمال التَّحسين والتَّقبيح بما أفهمه: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، والإذلال وهو الجرأة على المخالفات، فينشأ عن ذلك شرور متعدِّيَة، وهي السَّعي في إفساد العقائد، والأخلاق، والأعمال، والأبدان، والأرزاق، ثم لا يزال يتحبَّب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه من هذه الخبائث وهو يوافقه فيها حتى يصير له أخلاقًا راسخة، فيصير رديء الطَّبع فلا ينفع فيه العلاج، بل لا يزيده إلا خبثًا كإبليس، ومن كان أصله طيبًا واكتسب ما يخالفه بسبب عارض كان ممكن الإزالة كالعلاج كما وقع لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام[1].

شرور أخرى غير الوسوسة:

فأصلُ كلِّ معصيةٍ وبلاءٍ إنَّما هو الوَسوسة فلهذا وصفه بها؛ ليكون الاستعاذة من شرِّها أهمّ، وإلّا فشرّه بغير الوَسوسة حاصلٌ أيضًا فمن شَرِّهِ:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٤٣١).

١) أنه لصٌ سارقٌ لأموال النَّاس فكُلُّ طعام أو شراب لم يذكر اسم الله ﷻ عليه فله فيه حَظٌّ بالرَّشْفة والخَطْفِ.

٢) وكذلك يبيت في البيت الذي لم يذكر فيه اسم الله ﷻ، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم.

٣) يدلُّ على عوراتهم فيأمر العبدَ بالمعصية، ثم يلقي في قلوب أعدائه يقظةً ومنامًا أنَّه فعل كذا وكذا، ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطَّلع عليه -إلا الله ﷻ- أحدٌ من الناس فيصبح والنَّاس يتحدثون به، وما ذاك إلا لأنَّ الشَّيطان يجهده في كَشْفِ سِرِّه وفضيحته فيغْتَرُّ العبد، ويقول هذا ذنبٌ لم يره إلا الله ﷻ، ولم يعلم بأن عدوَّه ساعٍ في إذاعته، وقلَّ من يتفطَّن من الناس لهذه الدَّقيقة.

المعركة مع الوسواس مستمرَّة:

يلخِّص لنا قوله تعالى: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥، ٦] المعركة الدَّائمة التي شنَّها إبليسُ على البشريَّة، وجنَّد فيها أتباعًا له من الإنس ليكونوا أعظم المعاونين.

يبدأ معركته مع كلِّ إنسانٍ بالوَسوسة، ووسوسة الجِنَّة نشعر بها، ونجد آثارها في نفوسنا وحياتنا، وإن كنَّا لا نحيط بكيفيتها.

العبد يفعل الذَّنب لا يطَّلع عليه أحدٌ من الناس فيصبح والنَّاس يتحدَّثون به، وما ذاك إلا لأنَّ الشَّيطان يجهده في كَشْفِ سِرِّه وفضيحته فيغْترَّ العبد، ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله ﷻ، ولم يعلم بأن عدوَّه ساعٍ في إذاعته، وقَلَّ من يَتَفَطَّنُ من النَّاس لهذه الدَّقيقة.

الحصون النَّافعة الحامية من شرور الوسوسة الشَّيطانيَّة

١ الاستعاذة بالله من الشَّيطان الجنِّيِّ والإنسيِّ.	٢ قراءة المعوذتين، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شرِّه ودفعه.
٣ قراءة آية الكرسيِّ.	٤ قراءة سورة البقرة.
٥ قراءة خاتمة سورة البقرة.	٦ أول سورة غافر إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: 3].
٧ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، مائة مرَّة.	٨ كثرة الذِّكر.
٩ الوضوء والصَّلاة.	١٠ الصَّبر في مصاحبة الصَّالحين الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ.

الحصون النَّافعة الحامية من شرور الوسوسة الشَّيطانية:

يملك إبليس أسلحةً فتَّاكةً في معركته ضدَّ البشريَّة، ولكن الله ﷻ حبانا بمزايا مقابلها تشكِّل حصنًا عظيمًا من وَسوسته ووَسوسة أتباعه من الإنس، وهنا ربما تسأل: ما الحصون والأسباب الكليَّة النَّافعة للحماية من شَرِّ الوَسواس؟

الجواب: هناك أسبابٌ تُمَثِّل الحرز والحماية الخاصَّة من شَرِّ الوَسواس الخَنَّاس:

١) الاستعاذة بالله ﷻ من الشَّيطان الجنِّيِّ والإنسيِّ.

٢) قراءة المُعَوِّذتين، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شَرِّه ودَفْعِه.

٣) قراءة آية الكرسيِّ.

٤) قراءة سورة البقرة.

٥) قراءة خاتمة سورة البقرة.

٦) أول سورة حم المؤمن "غافر" إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

٧) لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، مائة مرَّة.

٨) كثرة الذِّكْر.

٩) الوضوء والصَّلاة.

١٠) الصبر في مصاحبة الصالحين الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي.

الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشَّيطان الجنِّيِّ والإنسيِّ، فقد قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، والمراد بالسَّميع هنا سمع الإجابة لا السَّمع العامُّ.

الحرز الثاني: قراءة المُعَوِّذتين، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله ﷻ من شَرِّه ودَفْعِهِ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ، وَالأَبْوَاءِ، إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ، وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِـ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وَيَقُولُ: «يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا»، قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلاةِ[1].

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا فَأَدْرَكْنَاهُ، فَقَالَ: «أَصَلَّيْتُمْ»، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ: «قُلْ». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، وَالمُعَوِّذتين، حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ» [2].

وعن عقبة بن عامر ﷺ أنه قال: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ»[3].

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن شيطانًا قال له –في قصَّة طويلة–: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: «لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ»، فقال النَّبِيُّ ﷺ له: «صدقك وهو كذوب»[4].

---

(١) أبو داود (١٤٦٣)، وصححه الأرناؤوط، والألباني.

(٢) الترمذي (٣٥٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» ، وصححه النووي في "الأذكار" (ص: ١٠٧)، وابن دقيق العيد في "الاقتراح" (ص: ١٢٨)، وحسنه ابن حجر في "نتائج الأفكار" (٢/ ٣٤٥)، والألباني في "صحيح الترمذي".

(٣) أحمد (١٧٤١٧)، وصححه الأرناؤوط، والألباني في مشكاة المصابيح (٩٦٩).

(٤) البخاري (٢٣١١).

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيطان يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»(١).

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ [ابن يزيد]: فَلَقِيتُ أَبَا مَسْعُودٍ وَهْوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَسَأَلْتُهُ؟ فَحَدَّثَنِيه(٢).

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن "غافر" إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]: فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حم الْمُؤْمِنَ إِلَى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ حِينَ يُصْبِحُ، حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُصْبِحَ»(٣).

الحرز السابع: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، مائة مرة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيطان يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»(٤).

الحرز الثامن: كثرة الذِّكر، من تسبيح وتحميد، وتكبير وتهليل، واستغفار، وصلوات وسلام على سَيِّد الأبرار، وفيه من الآيات والأحاديث شيءٌ عظيمٌ، يكفينا من دلالته على

---

(١) مسلم (٧٨٠).

(٢) البخاري (٤٠٠٨).

(٣) الترمذي (٢٨٧٩)، وقال: «هذا حديث غريب، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ المُلَيْكِيِّ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ»، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٤) البخاري (٣٢٩٣).

الحرز والحفظ من شرور الشَّياطين ووسوستهم قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] فإنَّ الله سبحانه إذا ذكرك أدخلك في حرز حمايته، وعين رعايته.

الحرز التاسع: الوضوء والصَّلاة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا»(١).

الحرز العاشر: الصبر في مصاحبة الصالحين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وخاصَّة من يقرؤون القرآن: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وبيَّن ابن القَيِّم رحمه الله أنَّ الذين يخالطهم الإنسان أربعة أقسام:

١) مَن مُخَالَطَتُه كالغِذاء، ولا يستغنى عنه في اليوم واللَّيلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، وهذا الضَّرب أعزُّ من الكبريت الأحمر، فهذا الضَّرب من مخالطتُهم الرِّبح كله.

٢) مَن مُخَالَطَتُه كالدَّواء تحتاج إليه عند المرض فإذا كنت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا تستغني عن مخالطتهم في مصلحة الدنيا.

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٢٢٢٤)، والمعجم الصغير (١٢١)، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة إلا أنه موقوف في الكبير، ورجال الموقوف رجال الصحيح، ورجال المرفوع فيهم عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ٢٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٧).

٣) مَن مُخَالَطَتُه كالدَّاء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوَّته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالدَّاء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح معه، بل يصيبك بالخسارة في الدِّين والدُّنيا أو أحدهما، ومنهم من مُخَالَطَتُه كوجع الضِّرس يشتدُّ ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من مُخَالَطَتُه مثل الحُمَّى.

٤) مَن مُخَالَطَتُه تؤدِّي إلى الهلكة، ومُخَالَطَتُه بمنزلة أكل السُّمِّ فإن اتَّفق لآكله تِرياق وإلا فأحسن الله ﷻ فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس -لا كثَّرهم الله- وهم أهل البدع والضَّلالة الصادُّون عن سُنَّة رسول الله ﷺ الدَّاعون إلى خلافها ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]، فيجعلون البدعة سُنَّة والسُّنَّة بدعة، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا[1].

وقد تتساءل: لماذا كانت سورة النَّاس خاتمة المصحف؟

الجواب: عندما تنظر إلى أوَّل المصحف ﴿الفاتحة﴾ وآخره ﴿الناس﴾ تجد شيئًا مدهشًا يظهر لك جمال الاتصال من خلال المعالم الآتية:

المَعْلَمُ الأول: تجد في أوَّل المصحف الإقرار المباشر بالإيمان بالله ﷻ، وحمده، وعبادته، والاستعانة به، وسؤاله الهداية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١-٦].

وتجد في (خَاتِمَةِ الْمُصْحَفِ الشريف) التَّوجيه إلى «انتزاع الإقرار» من الإنسان بعبادته لله وحده -كما يقول الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٤).

المَعْلَمُ الثاني: بين فاتحة المصحف وخاتمته ربطٌ بديعٌ في الصِّفات الثَّلاث، فهي موجودة في الفاتحة كما هي موجودة في سورة النَّاس [1]:

١) صفة الرُّبوبيَّة في سورة الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وفي سورة النَّاس ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

٢) صفة الملكيَّة في سورة الفاتحة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وفي سورة النَّاس: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

٣) صفة الألوهيَّة في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

وفي سورة النَّاس: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣].

المَعْلَمُ الثالث: فاتحة المصحف ابتداء، ويعبِّر عن ذلك أوَّل آية فيها سواء قلنا: إنها البسملة أو الحمدلة، والمُعَوِّذتان انتهاء، واختصَّت سورة النَّاس بإظهار الحماية للنَّاس.

المَعْلَمُ الرابع: كأنَّ الإنسان بعد أن قرأ المصحف من أوَّله إلى سورة المسد، ووضَّح له الطَّريق، ورأى براهين الأدلَّة قال خاضعًا خاشعًا: فما أقول لأسلك سبيل الوصول، فقيل له:

- ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فتلذَّذْ بتوحيد ربِّك.
- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، فاستمتع بالشُّعور بمعاذه من الشُّرور الخارجيَّة الخطيرة المشاهدة وغير المشاهدة.
- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فأَرِحْ قَلْبَكَ بالشُّعور بالمعاذ الإلهيِّ من الشُّرور الملازمة، وهي شرور الوَسوسة الجِنِّية والإنسيَّة.

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٧٧).

المَعْلَمُ الخامس: يظهره الرَّازيُّ رحمه الله في تدبُّرٍ مُثيرٍ فيرى أن الله –تعالى مجده– ذكر في سورة الفاتحة الْأَسْمَاءَ الثَّلَاثَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي التَّسْمِيَةِ فِي نَفْسِ السُّورَة، وَذَكَرَ مَعَهَا اسْمَيْنِ آخَرَيْنِ: وَهُمَا الرَّبُّ، وَالْمَالِكُ، فَالرَّبُّ قَرِيبٌ مِنَ الرَّحِيمِ، لِقَوْلِهِ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، وَالْمَالِكُ قَرِيبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]، فَحَصَلَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ: الرَّبُّ وَالْمَلِكُ، وَالْإِلَهُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَتَمَ اللهُ عز وجل آخِرَ سُورَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا، وَالتَّقْدِيرُ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ أَتَاكَ الشَّيطان مِنْ قِبَلِ الشَّهْوَةِ فَقُلْ: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وَإِنْ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِ الْغَضَبِ، فَقُلْ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، وَإِنْ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِ الْهَوَى، فَقُلْ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١ - ٣][1].

(١) تفسير الرازي (١/ ٢٢٧).

ختامٌ سما بالأئمة الأعلام

ربما تساءلت: كيف كان أثر هذا الختام على أئمتنا الأعلام؟

هذا جار الله محمود الزَّمخشريُّ رحمه الله يتأثَّر بهذا الختام، فينكب داعيًا: «وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله ﷻ الكاملة التامَّة، وألوذ بكَنَف رحمته الشَّاملة العامَّة، من كلِّ ما يَكْلمُ الدِّين، ويَثْلمُ اليقين، أو يعود في العاقبة بالنَّدم، أو يقدح في الإيمان المَسُوْطِ[أي المخلوط] باللَّحم والدَّم، وأسأله بخضوع العنق، وخشوع البصر، ووضع الخدِّ لجلاله الأعظم الأكبر... أسأله بحقِّ صراطه المستقيم، وقرآنه المجيد الكريم، وبما لقيت من كَدْح اليمين وعَرَق الجبين، في عمل الكشَّاف عن حقائقه، المخلِّص عن مضايقه... الملِّخص لنُكَتِه ولطائف نَظْمِه، المنِّقر عن فِقَرِه وجواهر علمه... وبما شرَّفني به ومجَّدني، واختصَّني بكرامته وتوحدَّني: من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونذره، ومُتَنَزِّل آياته وسُوَرِه... حتى وقع التَّأويل، حيث وجد التَّنزيل: أن يهب لي خاتمة الخير، ويقيني مصارع السُّوء، ويتجاوز عن فُرُطاتي يوم التَّناد، ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد، ويحلني دار المقامة من فضله، بواسع طَوْله وسابغ نَوْله، إنه الجواد الكريم، الرَّؤوف الرَّحيم». الكشاف (٤/ ٨٢٥).

ونختم هنا بما أمتعنا به الدكتور/ عامر الخميسي- وفقه الله - في قصيدته التي جعل عنوانها: " اطْرُقِ الباب"، حيث يقول فيها :

النَّاسُ تُغْلِقُ بَابَهَا جُنْحَ الدُّجَى ... واللهُ يَفْتَحُ بَابَهُ لِلنَّاسِ

فَإذا طَرَقْتَ البَابَ عُدتَّ مُحَمَّلًا ... بِالخَيْرِ والإِكْرَامِ والإِينَاسِ

يُعْطِي بَلَا حَدٍّ ويُكْرِمُ دَاعِيًا ... ويُغِيثُ مَلْهُوفِينَ بَعْدَ إِيَاسِ

ويُزِيلُ رَانَ القَلْبِ يَكْسُوهُ الرِّضَا ... بَعْدَ الشُّكُوكِ وَسَطْوَةِ الوَسْوَاسِ
البَابُ مَفْتُوحٌ فَهَلْ مِنْ سَائِلٍ ... يَرْضَى فَيَرْجِعَ مَا بِهِ مِنْ بَاسِ
يَشْفِي المَرِيضَ إِذَا تَعَاظَمَ كَرْبُهُ ... إِنْ عَزَّ فِي الأَوْجَاعِ طِبُّ الآسِي
يَدْعُوهُ مُحْتَاجٌ وعَارٍ بَائِسٌ ... فَيَعُودُ يَرْفُلُ فِي جَمِيلِ لِبَاسِ
لا تَرْتَهِبْ مِنْ جَيْشِ هَمٍّ زَاحِفٍ ... ودَعِ الهُمُومَ وخَلِّ كُلَّ إِيَاسِ
وتَرَقَّبِ اللَّيْلَ البَهِيمَ إِذا دَجَى ... وانْسَلَّ مِنْ سَمَرٍ ومِن جُلَّاسِ
وارْفع يَدَيْكَ إلى الرَّحِيمِ بِسُحْرَةٍ ... تَهْمِي عَلَيْكَ رَوَائِعُ الأَنْفَاسِ
وتَعُودُ بِالغَيْثِ العَمِيمِ مُجَلَّلًا ... بِالخَيْرِ والنَّعْمَاءِ بَعْدَ يَبَاسِ

فأيُّها القابض على دينِكَ فِي مَعْمَعَةِ الفتن، أنت السِّراجُ المُنير في عُتمة المَمْشَى وظُلْمة المَسِير.. خُذ بأيدي الحَيارى، وَلَا تستوحش قِلَّةَ العُدَّة والنَّصير .. واذكر ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

تم بحمد الله

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور سعيد أحمد السيد جمعة ٥

مُقَدِّمَة ٨

دَفْعُ الوَسْوَاسِ بِبَصائِرِ سُوْرَةِ النَّاسِ ٨

النُّور الأوَّل: فضائل سورة الناس ١٣

الفضيلة الأولى: المُعَوِّذتان كالفاتحة أعظم الوحي منزلة، فثلاثتهن أعظم السُّوَر مكانة . ١٥

الفضيلة الثانية: عظمة المُعَوِّذتين، فتقدَّمان على غيرهما من السُّور ما عدا الفاتحة ١٥

الفضيلة الثالثة: حِرزٌ خاصٌّ للإنسان في منامه ١٥

الفضيلة الرابعة: علاجٌ للأوجاع والأسقام ١٦

الفضيلة الخامسة: المُعَوِّذتان وقاية من الحوادث الطبيعية المخيفة ١٧

الفضيلة السَّادسة: المُعَوِّذتان وسيلة لإجابة السُّؤال، ووقاية خاصَّة من جميع ما يُخاف منه .. ١٨

الفضيلة السَّابعة: ارتباطهما بصلاة الوتر اليومية ٢١

الفضيلة الثامنة: مجلبة للرزق ورغد العيش ٢٢

الفضيلة التاسعة: المُعَوِّذتان العلاج الأقوى للسِّحر ٢٢

النُّور الثَّاني: الأسس السِّتَّة التي تؤدِّي إلى معرفة الموضوع الكلِّي لسورَة النَّاس ٢٧

الأساس الأوَّل: النُّزول التَّاريخيُّ ٢٨

الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ ٢٩

الأساس الثالث: اسم السُّورَة (سورة الناس) ٣٥

الأساس الرابع: مدد السَّابقين من المفسِّرين في تحديد الموضوع الكلِّيِّ لسورة النَّاس .. ٣٧

الأساس الخامس: أهمُّ موضوعات سورة الناس ٣٨
الأساس السَّادس: محاور السُّورَة ٣٩
التَّفسير التَّفصيليُّ لسورة النَّاس ٤٥
محاور سورة النَّاس ٤٥
المحور الأول: الأمر بالاستعاذة، والمستعيذ وهو (أنت): ﴿قُلۡ﴾ ٤٥
البصائر المتعدِّدة التي تحبو نا بها كلمة: ﴿قُلۡ﴾ ٤٦
المحور الثاني: صيغة الاستعاذة ٤٩
المحور الثالث: المُسْتَعَاذُ بِهِ ٥٢
الصِّفة الأولى: ربُّ الناس: ٥٢
الصِّفة الثانية: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ٦٠
الصِّفة الثالثة: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ٦٣
المحور الرَّابع: المستعاذ منه ٨٧
مشكاة النُّور في مجابهة أخطر الشُّرور ٨٧
المناسبة وجمال الانتقال: ٨٧
الصِّفات البيِّنة للمستعاذ منه: ٨٧
الشُّرور الشَّيطانيَّة لاحتناك الذُّرِّيَّة الآدميَّة ١٣٣
فهرس الموضوعات ١٥١

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مفصل تفسير — سورة الناس

تَزْخَرُ بَصائرُ المَعرفةِ القُرآنيَّةِ بروضٍ أخضرَ يَسُرُّ بِبَهجَتِه النَّاظِرين، ويُحْيي بزَهرَتِه المُتأمِّلين، ويَسْقي وِردُه العَطَاشَى المُغترفين، وكَمْ في القرآنِ من عَجَبٍ لِمَن أرْهَفَ السَّمعَ وأحْضَرَ القَلبَ.

وفي هذا السِّفْرِ الذي تُطالِعُهُ الآن بين يديك ما يبعثُ فيك الأشواقَ للازديادِ من أنوارِ القرآنِ المُشْرِقَةِ، ويُلْهِبُكَ حماسةً وتَطَلُّعًا لأفْيائِه المُورِقَة.

تُبْرِزُ لك البَصائرُ القُرآنيَّةُ لسُوْرَةِ النَّاس تلك الحمايةَ الرَّبَّانيَّةَ الَّتي يَهَبُها اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ مُتَعَوِّذٍ به مُلتَجِئٍ إليه، مُعتَصِمٍ به، فَتَرى هذا المُتَعَوِّذَ وقد لَبِسَ خُوذَةً واقيةً، ودرعًا حافظًا من كُلِّ خطرٍ يُحدِقُ به.

إنَّها سُورَةُ النَّاسِ الَّتي هي مع أُخْتَيْها سُورَةِ الفَلَق وسورةِ الفاتحةِ أعظمُ ما حَوَى هذا القُرآنُ من بَديعِ المَعاني ولَطيفِ المَبَاني.

في بصائرِ سُورَةِ النَّاسِ ستَعْبُّ من مَعينِها الرَّقْرَاقِ ما يَدُلُّكَ على جَلْبِ الأرزاقِ، وستَقرأُ ما ورد عنها من أخبارٍ أنَّها طاردةٌ للدَّاءِ والأَسْحَارِ، وسَتَرى في بَصائرِها ذاك النُّورَ الَّذي يُرِيك عَظَمَتَها وجَلَالَها وقَدْرَها، فهي في أعظمِ مَنازلِ القرآنِ ودَرَجاتِه.

بَقِيَ أن نقولَ: إنَّ هذا الكتابَ هو آخرُ لَبِنةٍ في مَشْرُوعِ البَصائرِ القرآنيَّةِ، لكنْ قَدَّمْنَاها؛ لبيانِ قَدْرِها، ولارتباطِها مع سُورَةِ الفلقِ بسُورةِ الفاتحةِ، وسَنَسيرُ قُدُمًا بإذنِ مَولانا العزيزِ في تَسْويرِ سُوَرِه المُباركةِ والإحاطةِ بمَعانيها؛ من أَجْلِ تقديمِ تفسيرٍ تجديديٍّ، يُظهِرُ الحِكمةَ العظيمةَ في "تَسْويرِ السُّوَرِ القرآنيَّة"، حيث نرى مَحاورَ كلِّ سُورَةٍ في صُورَةٍ خطِّيَّةٍ مُتتابعةٍ نُشاهِدُ من خلالها إحكامَ هذا البِناءِ العظيمِ، وجَمالَ مَظْهرِه الكريم.

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
UFUK neşriyat
BASIN-YAYIN-DAĞITIM
www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com